

العلامات التي تقدمت على استرداد الأرض المقدسة

يتوجب أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بهذه الإعادة لأرض المعياذ والقدس إلى الصليبيين، أن منجمي طليطلة قد كتبوا، قبل حدوث هذا الفرح العام والسرور بين الصليبيين، عن التقاء الكواكب، وعن عواصف مرعبة من الرياح، وأن العواصف سوف تتصادم، وأنه سيكون في الوقت نفسه زلزال، وكسوف للشمس وخسوف أيضاً للقمر، وهذا ما تقدم ذكره في سياق أحداث هذا العام، وبالطريقة نفسها حدث أخذ الأرض المقدسة وصليب ربنا، من قبل صلاح الدين الرجل العنيف والشديد، فقد كتب آنذاك أيضاً بعض المنجمين، الذين كانوا يعيشون وقتها في المدينة نفسها، إلى البابا كليمنت كما يلي:

«إنه من العام الحالي، الذي هو عام ألف ومائة وتسعة وسبعين لتجسيد ربنا، حتى مضي سبعة أعوام، وفي شهر أيلول، سوف تكون الشمس في برج الميزان، وذيل التنين، وسوف إذا أذن الرب يكون اجتماع للكواكب في برج الميزان وذيل التنين، وهذهشارة لها أهميتها حول حوادث ثابتة، وسوف يلي ذلك زلزال مخيف، ولسوف تتدمر أماكن الدمار المعتادة، ويلحقها الخراب من قبل زحل والمريخ، الخ، ولسوف ينتج اتحاد الكواكب هذا، ريحاً قوية، سوف تجعل الهواء كثيفاً ومظلماً، ومشبعاً بالسم، وسيكون صوت هذه الرياح مخيفاً، ترتجف منه قلوب الناس، وسوف تثور الرمال من المناطق الرملية، ولسوف تغمر المدن القائمة على مقربة منها في السهول، وسيطال ذلك في المقام الأول المدينتين الشريقتين: مكة، والقاهرة، وجميع المدن الواقعة قرب أماكن رملية، ومامن أحد سوف ينجو من غمره بالرمال والتراب، هذا ولسوف تتقدم على هذه الحوادث علامات دالة عليها، وسوف يكون بالعام نفسه قبل اجتماع الكواكب في الميزان، كسوف كامل للشمس، وفي الصراع المتقدم سيكون هناك خسوف كامل للقمر، وسوف يكون

كسوف الشمس نارياً، ولوناً غير مرئي، مما يشير أنه ستكون هناك حرب بين الزعماء قرب نهر في الشرق، ومثل ذلك في البلدان الغربية، وسوف يدب الشك بين اليهود وبين المسلمين، إلى حد يصلون فيه إلى التخلي عن كنسهم وعن مساجدهم، وسوف تتعرض طائفتهم — بناء على أوامر الرب — إلى الدمار الكلي، والمحق التام، وبناء عليه، عندما سترى كسوفاً، اعلم أن عليك مغادرة تلك البلاد مع جميع أتباعك».

كيف أنه للذنوب إنسان ضاعت الأرض المقدسة

وكان في ذلك الوقت كثيراً من الشرور بين الناس على الأرض، إلى حد أن «جميع الأجساد قد أفسدت طريقها أمام الرب»، لأن ممارسة الذنب قد تفجر بين الناس وانتشر، إلى حد أن الجميع قد ألقوا جانباً حجاب الخجل، وكان الميل في كل مكان إلى الشرور بشكل مكشوف، وسوف يكون متعباً جداً تعداد جرائم: القتل، والسلب، والزنا، والفحش، والكذب، والخيانة، وجرائم أخرى، خاصة بالنسبة لنا نحن الذين ننوي أن نكتب عن الأحداث التي وقعت، وعلى كل حال بعدما تمكن العدو القديم للإنسان من نشر روح الفساد في الطول والعرض في العالم، غزا سورية بشكل خاص، وهي المكان التي منها تلتق الأمم الأخرى دينها في المقام الأول، ثم إنها أخذت من ذلك المكان المثل لجميع الدناسات، ولهذا السبب — بناء عليه — عندما شاهد الرب مخلص العالم، بأن أرض ميلاده، وآلامه، وقيامته، قد سقطت في أعماق الشرور، رفض ميراثه وازدراه، وسمح لعصا غضبه، الذي هو صلاح الدين، بصب جام غضبه، لمحق ذلك الجنس العنيد، لأنه فضل أن يجري استعباد تلك الأرض المقدسة من قبل الطقوس المندسة للأمم، على أن يستمر أولئك الناس بالازدهار أية مدة أطول، لأنهم كانوا غير متمنعين عن اقتراف أي عمل غير شرعي، بوساطة أي تقدير لما هو صحيح، وأنذرت حوادث متنوعة باقتراب الدمار الذي كان سيقع،

وتجلى ذلك بمجاعة كبيرة، وبزلازل متوالية، وبكسوفات للشمس وخسوفات للقمر، أما بالنسبة لعاصفة الرياح، التي قال بوقوعها منجمو طليطلة من خلال مراقبة النجوم، وأنها سوف تأتي من اجتماع الكواكب، وأنها سوف ترافق مع موتان، وأجواء فاسدة، قد تغيرت بدون شك لتدل على الحادثة التالية، لأنه كان في الربيع رياح قوية، هزت الأركان الأربعة للعالم، وهذه أذرت بأن مختلف شعوب الدنيا، سوف ثور لإنشاب القتال، ولتدمير الأرض المقدسة، وقد بقيت مدينة القدس المقدسة مع جميع أرض الميعاد، وكذلك الصليب المانح للحياة، والعائد إلى ربنا، في أيدي أعداء المسيح لمدة اثنين وأربعين عاماً، حتى العام الحالي، وهو عام ألف ومائتين وتسعة وعشرين لتجسيد ربنا، عندما حان أخيراً الوقت لمولانا في رحمته، ليصغي إلى صلوات عبده المتواضعين، وليعيد بناء صهيون، وليظهر بمجده في مكان ولادته المقدسة، وآلامه، وقيامته، وليستمع إلى نحيب شعبه المستعبد، وليحرر أبناء المدمرين، حقاً، وإنه لما لاشك فيه أن الرب سمع أنين شعبه المستعبد أثناء استعادة الأرض المقدسة، الأمر الذي تحقق في ذلك الوقت من خلال سهر الامبراطور فرديريك، بالتعاون مع الرحمة اللاهوتية، ومثل هذا حدث إلى جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطة الكفار، وكانوا خاضعين إلى أسوأ أنواع العبودية، فقد تحرروا من نير العبودية، وقدموا إلى مدينة القدس المقدسة، حيث أظهروا أنفسهم إلى كثيرين، وبعدهما فرغوا من عباداتهم في الأماكن المقدسة الموجودة في المدينة المقدسة، عادوا إلى بلدانهم في مختلف أنحاء العالم، يمدون الرب، ويباركونه في جميع الأشياء، لأنهم سمعوا وشاهدوا الأعمال الرائعة التي عملها الرب من أجلهم، وأراهم إياها.

مصالحة مدينة القدس المقدسة والأماكن الأخرى

وكما سلف وقلنا، دخل الجيش الصليبي إلى مدينة القدس المقدسة،

وقام البطريك مع الأساقفة المساعدين بتطهير هيكل الرب، وكنيسة ضريحه المقدس وقيامته، وجميع الكنائس الأخرى المقدسة في المدينة، وغسلوا البلاط والجدران بالماء المقدس، وعملوا مسيرات مع الترانيم والمزامير، وصالحوا لأجل الرب جميع أماكنه، التي تلوئت لزمن طويل بدنس الكفار، لكن بحكم أن الامبراطور كان محروماً كنسياً، لم يتجرأ رجل دين، طوال إقامته في داخل المدينة، على إقامة قداس فيها، وقام على كل حال واحد اسمه المعلم وولتر، وكان متديناً، وحكياً، ورجلاً مستقيماً، ومن أتباع طائفة المبشرين، وكان قد عهد إليه من قبل البابا، بواجب وعظ جيش المسيح، وهو واجب قام به على أحسن مايرام لوقت طويل، قام بعمل قداسات في كنائس الضاحية، بها أثار كثيراً خشوع الصليبيين، واستحوذ بعد هذا جميع الأساقفة من عاليهم إلى دانيهم، وكذلك جميع رجال الدين على كنائسهم، وأعيدت إليهم ممتلكاتهم القديمة، وفرحوا كثيراً بسبب هذه الأعطيات السماوية التي أضفيت عليهم أكثر مما توقعوه، وانطلقوا جميعاً نحو العمل بالتعاون مع بقية الحجاج، وبدلوا نفقات كبيرة وجهوداً عظيمة لإعادة بناء المدينة، وإحاطة الأسوار بخنادق، ولترميم شرفات الأبراج، ولم ينفذ عمل هذا في مدينة القدس المقدسة فقط، وإنما شمل ذلك جميع المدن والقلاع في تلك البلاد، التي سار فوقها يسوع المسيح بقدميه المقدستين، وكرسها بدمه المقدس.

أسباب شكوى البابا ضد الامبراطور

ووصل في العام نفسه المعلم ستيفن، الذي كان قسيس ورسول البابا إلى انكلترا، إلى الملك، ليجمع العشور التي كان رسل الملك المذكور قد وعدوا بها قداسته من أجل متابعة حربه ضد الامبراطور الروماني، لأن البابا قد سمع عن جرائم كثيرة مقيئة اقترفت ضد الشريعة المسيحية من قبل الامبراطور المذكور، وعنهما قد أمر بكتابة رواية، وتدبر نشرها

برسائل أرسلت من قبل الكرسي الرسولي، في مختلف أجزاء العالم، وكانت أول التهم التي صدرت بحقه، قيامه في يوم بشارة مريم المباركة، بالدخول إلى كنيسة الضريح المقدس في القدس، مع أنه كان محروماً كنسياً، ووقف هناك أمام المذبح الكبير، فتوج نفسه بيديه، وبعدهما تولى تتويج نفسه، جلس هناك في المقعد البطريركي، وألقى كلمة بالناس لطف فيها شروره، واتهم الكنيسة الرومانية بأنها عملت بشكل غير عادل ضده، ثم إنه خرج من الكنيسة، يحيط به جمهور من أتباعه، ولم يكن معه أياً من رجال اللاهوت، وكان مرتدياً تاجه، ومضى إلى قصر الاستبارية، وقد قيل أيضاً، أنه أكل في قصره في عكا وشرب مع مسلمين، وقدم نساء راقصات مسيحيات للرقص أمامهم، وقد قيل بأنهم بعد ذلك تولوا الاتصال بهن، وأيضاً ما من أحد سواه عرف شروط المعاهدة التي أبرمها مع السلطان، وقد ظهر واضحاً—بقدر ما يمكن للمرء أن يحكم من المظاهر الخارجية— بأنه توافق مع شريعة المسلمين، أكثر من توافقه مع شريعة إيماننا، إلى حد أنه اتبع عاداتهم في عدة نقاط، وورد كذلك في الاتفاقية المكتوبة بينه وبين السلطان، والتي تدعى باللغة العربية «مصافاه» شرط قضى أنه أثناء الهدنة سوف يساعد السلطان ضد جميع الناس من مسيحيين ومسلمين، سواء، وفي الجهة المقابلة سوف يساعد السلطان بالطريقة نفسها، وأنه أيضاً انتزع من كهنة الصليب المقدس في عكا، بعض مواردهم، التي كانت حقاً لهم في ميناء عكا، وأنه أيضاً نهب رئيس أساقفة نيقوسيا في قبرص، كما أنه في معاداة منه للبطريرك قام بحماية أحد الأساقفة السوريين، بوساطة السلطة المدنية، وكان هذا الأسقف قد رسم من قبل واحد كان محروماً كنسياً، ومنشقاً، كما أنه قام أيضاً بنهب كهنة الضريح المقدس، وحرهم من منح ذلك الضريح، وسلب البطريرك أيضاً من المنح التي يجري تقديمها عند الجمجمة والجلجلة، وسلب أيضاً كهنة الهيكل المقدس من منحهم، وقد جمع كل هذه المنح بوساطة وكلائه، ولهذا السبب

الإجرامي حرمه كنسياً أخوه وولتر مع جميع أتباعه في مدينة القدس، وكذلك أمر في يوم أحد السعف بجر الوعاظ وانزالهم بالقوة من على المنابر، حيث كانوا يعظون، وأهانهم وسجنهم، كما أنه قام في حوالي أيام آلام ربنا بحصار البطريك، وأسقفي وينكستر واكستير والداوية في بيوتهم، لكن عندما رأى أنه لن يحصل على ما يريد غادر مضطرباً، ولهذا الأسباب — مع أنه ليست هناك حاجة لأسباب أخرى — لم يقدر قداسة البابا مطلقاً الذي فعله بالأرض المقدسة، وعمل حرباً ضده، مؤكداً أنها حرب عادلة وضرورية من أجل الإيمان المسيحي، وأن مسبب الاضطراب للكنائس ينبغي خلعها من المقام الامبراطوري، ويظل ماهو أعظم إثماً من جميع هذه الآثام، هو أنه أثار اضطهاداً خيفاً ضد أمه كنيسة روما، واستولى على ممتلكات قلاعها وأراضيها، والمقتنيات العائدة إليها، وهو حتى الآن محتفظاً بهم، بمثابة عدو معن.

العشور التي جمعت في انكلترا من أجل البابا غريغوري

وفي حوالي هذا الوقت، تولى المعلم ستيفن قسيس البابا ورسوله شرح أعمال البابا، ويبين سبب قدومه إلى انكلترا إلى الملك، وبناء على ذلك، عقد الملك في الأحد الثاني بعد الفصح، اجتماعاً في ويستمنستر لرؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والداوية، والاسبتارية، والاييرلات، والبارونات، وقساوسة الكنائس، وكل المتسلمين لوظائف عالية من قبله، لسماع الرسالة المتقدم ذكرها، وللتباحث حول القضايا الهامة بشكل عام، وعندما بناء عليه اجتمعوا جميعاً، علمانيين ورجال دين مع أتباعهم، قرأ المعلم ستيفن بحضورهم جميعاً رسائل البابا، المطالبة بجزء العشر من جميع الممتلكات المتحركة في جميع أنحاء انكلترا، وايرلاندا، وويلز، من رجال الدين، وكذلك من العلمانيين، حتى يتمكن من متابعة الحرب التي شرع بها ضد فردريك الامبراطور الروماني، كما أنه أعلن في هذه الرسائل أنه هو وحده تولى

القيام بهذه الحملة لصالح الكنيسة العالمية، التي يسعى الامبراطور المذكور إلى قهرها، مع أنه محروم كنيساً منذ وقت طويل ومتمرد، وبما أنه من الواضح أن الكرسي الرسولي لم يكن غنياً بما فيه الكفاية حتى يتمكن من تدميره، فهو قد أرغم على طلب المساعدة من جميع أبناء الكنيسة، فبوساطة هذه المساعدات قد يتمكن من إيصال الحملة المرغوب بها، التي بدأ بها، إلى نهاية، ذلك أنها الآن ببعض المعايير تتقدم، وأخيراً نصح البابا في نهاية رسالته لجميع أفراداً وجماعات، بتقديم مساعدة قوية إلى الكنيسة، لأنهم أطراف الكنيسة، مثلما هم الأولاد الطبيعيين لكنيسة روما، التي هي أم جميع الكنائس، ويخشى — لاسمح الرب — أنهم إذا ما عجزوا عن تقديم المساعدة، أن يستسلم الجسد كله وتداعى الأطراف، وبمثل هذه المناقشات التي وردت في رسالة البابا، سعى المعلم ستيفن إلى اقناع الذين كانوا حضوراً بالموافقة على الطلب، عارضاً التشريف والمنفعة التي سوف يحصل عليها الذين سوف يكونوا مطيعين، وكان الجميع يأملون أن يقوم الملك بمعارضة هذه الجبايات، لكنه ما كان بإمكانه فعل ذلك، لأنه كان قد وعد بدفع هذه العشور في روما، بوساطة رسله، كما ذكرنا أعلاه، وبما أنه لم يقدم جواباً، بدا بصمته أنه موافق، لكن الإيرلات والبارونات وجميع العلمانيين، أعلنوا بشكل واضح، أنهم لن يوافقوا على هذه العشور، كما أنهم لا يرغبون بوضع بارونياتهم، أو ممتلكاتهم المدنية تحت تصرف الكنيسة الرومانية، أما بالنسبة للأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين الآخرين، فقد قاموا بالموافقة، بعد مناقشات صاخبة لمدة يومين أو ثلاثة، ذلك أنهم كانوا خائفين من نيل عقوبة الحرمان الكنسي أو الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ما عارضوا الأوامر الرسولية، ثم أظهر المعلم ستيفن أمام جميع رجال الدين رسائل توكيل من البابا، بها عينه وقداسته وكيلاً عنه لجمع العشور المذكورة، وأنه يتوجب جمع هذه العشور، ليس مثلما كان قد فعل في فرض ضريبة جزء العشرين، التي

قد دفعت قبل وقت قصير إلى الملك حتى يحصلوا على امتيازاتهم، بل ينبغي جمعها، وفق أحسن طريقة لصالح البابا ومنفعته، وبناء عليه توجب فرض الضريبة على جميع السلع والمقتنيات المتحركة لكل واحد، حتى يدفع أقصى ما يمكن، أي العشر من جميع الموارد، والمرباح السنوية، ومنتجات الأراضي المفلوحة، والمنح، والعشور، والمؤن للناس وللدواب، وجميع موارد الكنائس والممتلكات الأخرى، مهما كان العنوان الذي دونت تحته، دون أن يقوموا في أية مناسبة من المناسبات بحذف ديون أو نفقات، وكان بهذه الرسائل نفسها مخولاً بفرض الحرمان الكنسي على جميع المتذمرين، وأن يضع الكنائس تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبناء عليه، بعدما عيّن نوابه في كل كونتيه في انكلترا، حرم كنسياً جميع الذين هم أنفسهم، أو بوساطة الآخرين، مارسوا أي تواطؤ، أو خداع، أو عملوا أية اتفاقات غير عادلة، أو قاموا بأي حذف، فيما يتعلق بقضية دفع العشور المتقدم ذكرها، وبما أن المساعدة الفورية كانت ضرورية بالنسبة لهذه المسألة، أمر جميع رجال الدين والآخرين، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، أن يقوموا بين أنفسهم، أو بطرق أخرى أو بآخرين، على الفور بتسليم المال الذي كان قد طلبه، حتى يتمكن من إرساله مباشرة إلى البابا، وأنهم فيما بعد يمكنهم استرداد مادفعوه كاملاً، من العشور التي سوف تؤخذ من كل واحد، لأنه قال بأن البابا متورط بديون كثيرة، إلى حد أنه هو غير عارف كيف يمكنه متابعة الحرب، التي بدأها، ثم أنهى الاجتماع، ومضى كل منهم منصرفاً وهو يتمتم منزعجاً.

الفرض المؤلم للعشور المذكورة

وأرسل بعد هذا المعلم ستيفن رسائل إلى كل واحد من الأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، من مختلف الأوضاع، في جميع أرجاء المملكة، أمراً بإيهم، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي،

والحرمان من شراكة المؤمنين، أن يرسل إليهم، في يوم حدده، مبلغاً معيناً من المال الذي جرت مؤخراً الموافقة عليه، وأن يوزن بكل دقة، حتى يتمكن من إرضاء الذين أقرضوا البابا، ولكي يتجنبوا عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وقد مارس في فرض هذه الضريبة واستخراجها، جبايات كانت مؤلمة إلى حد أنه أرغم كل واحد أن يعطيه قيمة العشر، حتى من موسم الخريف المقبل، الذي لم يكن قد أثمر بعد، وعندما لم يجد الأساقفة أمامهم موارد للدفع، أخذوا كؤوس القربان، والطوس، والأقداح، والأواني المقدسة الأخرى، من الكنائس، وقد باعوا بعضها، وبعضها الآخر رهونه مقابل فائدة، وامتلأت البلاد، بشكاوى متواصلة، وإن كانت سرية، وصلى الجميع من أجل أن لا تكون هذه الجبايات منتجة نفعاً للذين فرضوها، وكان رالف إيرل أوف شيلستر هو الوحيد الذي رفض إخضاع أراضيه للتابعة، ولم يسمح لأي من رجال الدين والكهنة بتقديم هذه العشور وجبايتها من اقطاعيته، مع أن انكلترا، وويلز، وسكوتلندا، وإيرلندا، كلهم أرغموا على دفعهم، وفي جباية هذه العشور، توفرت ناحية واحدة أعطت شيئاً من المواساة والراحة، تمثلت بأن ممالك القارة، والممالك التي وقعت على بعد، لم تكن معفية من هذه الضريبة، وعندما أخيراً وصل مبلغ المال الذي جمع بهذه الطريقة، إلى الحبر الأعظم، قدمه بكرم إلى جون دي بريين، وإلى القادة الآخرين لجيشه، وسبب هذا أذى عظيماً للإمبراطور، لأنهم دمّروا أثناء غيابه بلداته وقلاعه.

وفي العام نفسه، في ٢٧- أيار، جرت سيامة روبرت دي بنغهام Bingham الأسقف المنتخب لسالسبري، من قبل وليم أسقف ووركستر، وجرت السيامة في شيبتون Shepton وساعده في ذلك الأسقفان جوسلين أوف باث، والاسكندر أوف كوفنتري.

و في هذا العام أيضاً، في أحد الشعانين، في الثالث من حزيران، منح

الملك هنري حزام الفروسية إلى جون بن هيوبرت، مسؤول العدالة في انكلترا.

تكريس رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، إلخ

وفي العام نفسه، في أحد الثالوث المقدس، اجتمع الأساقفة المساعدون لكنيسة كانتربري، في تلك المدينة، وجرى في ذلك اليوم تكريس رتشارد، رئيس الأساقفة المنتخب، من قبل هنري أسقف روكستر من دون الطيلسان، وبناء عليه سمح له إما برسم الكنائس أو بتكريسها، ومعه جرى في اليوم نفسه، الذي كان العاشر من حزيران، تكريس روجر الأسقف المنتخب للندن، وهيوج أوف إيلاي، من قبل الأسقف نفسه، أمام المذبح الكبير، في كنيسة الثالوث المقدس.

الاستعدادات الكبيرة لملك انكلترا للعبور إلى فرنسا

وفي هذه الأونة نفسها، أيام عيد القديس ميكائيل، جمع الملك هنري في بورتموث جميع نبلاء مملكة انكلترا، أي الايرلات، والبارونات، والفرسان، مع حشد كبير من الجنود من خيالة ورجالة، بعدد ليس معتقداً أن أيّاً من أسلافه قد جمع مثله مع بعضه بعضاً قط، لأن حشداً كبيراً من الفرسان والجنود قد وصل إليه من بلدان: إيرلاندا، وسكوتلندا، وويلز، وغالوي Galway وقد أصيب الجميع بالدهشة، لأن الملك عزم على عبور البحر مع هذه القوة الكبيرة، لاسترداد الملكية على الأراضي التي كان والده قد فقدها، لكن عندما أراد مقدمو جيش الملك وقادته نقل الامدادات والأسلحة ووضعها على ظهر السفن، وجدوا قليلاً منها لم تكن كافية لنقل نصف الجيش، وعندما حملت هذه الأخبار إلى الملك، غضب كثيراً، وألقى اللوم كله حول هذا، على هيوبرت دي بورغ مسؤول العدالة، ودعاه أمام الجميع باسم خائن قديم، واتهمه باستلام خمسة آلاف مارك من ملكة فرنسا، حتى سبب

هذا النقص من أجل إعاقة خططه، وأثناء غضبه جرد سيفه، وحاول أن يقتل المسؤول عن العدالة، لكن رالف إيرل أوف شيبستر تدخل مع آخرين كانوا حاضرين، وأنقذوه من الموت، وقد سحب نفسه من أمام حضرة الملك، حتى يبدأ غضبه ضده ويبرد، وفي الوقت نفسه، في التاسع من تشرين الأول، وصل هنري كونت بريتاني إلى ذلك الميناء، ليقود الملك آمناً إلى أراضيه، حسباً كان متفقاً عليه، ومؤكداً بالأيمان فيما بينهما، لكنه بالاتفاق مع بعض الحكماء الآخرين في الجيش، نصحوا الملك ليؤجل الحملة حتى عيد الفصح المقبل، لأنه كان خطراً القيام بمثل هذه الرحلة الصعبة أثناء الشتاء، وبناء على هذا أعطى الملك الإذن إلى جميع الجيش بالعودة إلى الديار، وتصالح هو والمسؤول عن العدالة، ثم قدم كونت بريتاني الولاء إلى الملك ضد جميع الناس، من أجل بريتاني، وأعاد الملك إليه جميع حقوقه في انكلترا، وبعدما أعطاه خمسة آلاف مارك للدفاع عن أراضيه، أرسله عائداً إلى مقاطعته، وفي العام نفسه، في ٢٣ تشرين الثاني، استلم رتشارد رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان الذي أرسل إليه من قبل البابا، وبحضور الملك والأساقفة المساعدين عمل قداساً وهو مرتدياً للطيلسان، في الكنيسة الكاتدرائية في كانتربري.

الموت الشرير لمرابي

وعاش في هذه الآونة في بريطانيا الدنيا واحد من المرابين، الذي كان يقرض ماله مقابل فائدة، ومن ذلك جمع ثروة كبيرة، ومع أنه غالباً ما أخبر من قبل أسقف ذلك المكان، أنه كان أمراً غير قانوني أن يزيد أمواله بوساطة الربا، لم يصغ للأسقف، وثابر في مسعاه لجمع الثروة، مع أن ذلك كان وفق هذه الطريقة غير الصحيحة، وبناء على ذلك عندما وجد الأسقف أن الرجل غير قابل للإصلاح حرّمه كنسياً، وأبعده عن جماعة المسيحيين، غير أنه استخف بذلك، لكنه مالّب بعد

ذلك طويلاً حتى أنهى حياته بشكل تعيس، دون أن يتناول القربان، أو يقوم بالاعتراف، وقد ذهبت زوجته وأولاده إلى كاهن البلدة، وطلبوا منه دفن المتوفى وفق طقوس الكنيسة، لكن الكاهن رفض ذلك، لأنه مات وهو محروم كنيساً، وأمرهم بدفنه خارج البلدة في مكان يلتقي فيه طريقان، وبناء على هذا ذهبت الأرملة مع أولادها إلى الكونت، وتقدمت إليه بشكوى بأن الكاهن رفض أن يدفنه دفناً كنيسياً، لكنها أخفت السبب، وهو أنه مات محروم كنيسياً، وقد غضب الكونت كثيراً من الكاهن، وأمر خدمه بالذهاب إليه، وأمره باسمه أن يدفن الرجل الميت، وإذا مارفص الكاهن تنفيذ ذلك، أن يربطوه إلى الرجل الميت وأن يدفنوهما معاً، وقد جرى تنفيذ هذا الأمر، وقام جميع أساقفة بريطانيا بحرمان الكونت، وبناء على ذلك جرى نفي اثنين من الكهنة مع جميع الأساقفة من قبل الكونت، وبقي هو نفسه تحت عقوبة الحرمان الكنسي حتى يمكن تثبيت ذلك من قبل البابا.

عودة الامبراطور الروماني فردريك إلى بلاده

وفي العام نفسه، بعدما استرد الامبراطور الروماني فردريك الأرض المقدسة إلى الحكم الصليبي، وبعدهما جرى تبادل الأيمان على هدنة لمدة عشر سنوات مع سلطان دمشق، صعد ظهر السفينة وأقلع في يوم العثور على الصليب المقدس، ليعبر البحر المتوسط عائداً إلى بلاده، ولأنه سمع بأن جون دي بريين كان قد أقام له المصائد في موانئ هذا الجانب من المياه، لم يتجرأ على النزول إلى البر من دون حذر، حتى لا يحصل أعداؤه على سرور إلقاء القبض عليه، وقد نزل في مكان آمن، وبعث أمامه جواسيس اقتادوه إلى مكان آمن، ووصل أخيراً آمناً مع حاشية صغيرة إلى صقلية، وهناك علم بأن أعداءه قد أخضعوا عدداً كبيراً من قلاعه وبلداته، لابل أكثر من هذا، إنهم كانوا يقومون بغارات داخل المناطق الامبراطورية، حيث مامن أحد كان يعترضهم، لكن عندما بات

خبر وصوله معروفاً من قبل رعاياه الشرعيين، الذين كانوا مرتبطين بالولاء له، تدفقوا عليه، مع أنهم أحيطوا بهؤلاء، وعندما قوي جانبه بأخرين قدموا إليه، انقض بشجاعة على أعدائه، وشرع خطوة خطوة يسترد أراضيهِ والقلاع التي كان قد فقدتها.

كيف أمضى ملك انكلترا عيد الميلاد في يورك

عام ١٢٣٠م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في يورك، برفقة ملك الاسكوتلنديين، الذي كان قد دعاه إلى العيد، وكان رئيس أساقفة المدينة حاضراً هناك مع الايرلات، والبارونات، والفرسان، وكانت هناك حاشية كبيرة، وهناك أيضاً وزع الملكان كثيراً من ملابس العيد بين فرسانهم، وكان الملك الانكليزي مسرفاً بكرمه نحو ملك الاسكوتلنديين، حيث أتخفه بخيول ثمينة، وخواتم، وجواهر، واستمروا بالاحتفال لمدة ثلاثة أيام، مقيمين موائد فخمة في كل يوم، وتفرق الجمع في اليوم الرابع، وعاد الملك الاسكوتلندي الى وطنه، في حين أسرع الملك هنري إلى لندن.

وحدث في هذا العام أيضاً، في يوم تحول القديس بولص واهتدائه، انه عندما كان أسقف مدينة لندن واقفاً أمام المذبح الكبير في الكنيسة الكاتدرائية في تلك المدينة، مرتدياً قلنسوته، وكان على وشك إقامة قداس بحضور سكان المدينة الذين كانوا هناك، والذين اجتمعوا تكريماً للقديس بولص، وقتها فجأة أصبحت السماء مغطاة بغيوم كثيفة، وبذلك باتت الشمس محجوبة، حتى بات بصعوبة يمكن للانسان أن يرى جاره في الكنيسة، وبات الجميع في حالة دهشة، ومتوقعين أن يوم الحساب قد حلّ، ووقتها انفجر صوت تصادم رهيب عاصف فوق الكنيسة، حتى بدا البناء نفسه مع البرج العالي وكأنه على وشك السقوط على رؤوسهم، وصدر عن الغيوم الكثيفة برق هائل، بدت معه الكنيسة وكأنها مشتعلة بالنيران، وتصاعدت وسط هذا كله رائحة نتانة لا يمكن

تحملها، إلى حد أن جميع الحضور باتوا خائفين من الاختناق، وكان عدد الموجودين في الكنيسة حوالي الألف من الناس من الجنسين، وقد خافوا من موت من نوع ما، لذلك بادروا مسرعين بالفرار من الكنيسة، وأثناء خوفهم سقط بعضهم أرضاً، فبقوا هناك لبعض الوقت من دون شعور أو حركة، ومن بين جميع الحضور الذين احتشدوا هناك، بقي فقط الأسقف وواحد من الشمامسة أمام المذبح الكبير، من دون اضطراب، ووقفاً مرتديان ثيابهما المقدسة، وهما ينتظران رضا الرب، وبعد لأي عندما صحت الدنيا، واسترد جميع الحشد ثقتهم بالسلامة، دخلوا ثانية إلى الكنيسة، وأكمل الأسقف بخشوع الجزء المتبقي من القداس، وأحدثت هذه الواقعة دهشة عظيمة في جميع أرجاء المدينة، وخشي الجميع من أنها مقدمة لوقوع واقعة عظيمة ومرعبة.

وفي العام نفسه، كان الامبراطور الروماني، قد استرد أثناء الصوم الكبير، كثيراً من القوة ضد أعدائه، حيث أنه استرد بالقوة ملكية جميع القلاع والممتلكات العائدة إلى الامبراطورية، وكل الذين أخذهم أسرى في القلاع إما سلخهم أحياء، أو علقهم على المشانق، وخشي جون دي بريين، الذي كان خصمه المعلن من الوقوع بين يديه، فهرب إلى فرنسا، موطنه الأصلي، وبعد ذلك تمت بناء على وساطة أصدقاء ورجال دين، الموافقة على عقد هدنة بين البابا والامبراطور، وذلك حتى يتوصلا إلى وضع شروط سلام.

وفي شهر نيسان من العام نفسه جرى شنق وليم دي براوس من قبل للويلين الزعيم الويلزي، وكان قد ألقى القبض عليه، وهو — كما قيل — يزني بامرأة ذلك الأمير.

وفي العام نفسه، أعطى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الكهنة في جميع أرجاء انكلترا، إلى الملك، بناء على طلبه، مبلغاً كبيراً من المال، حتى يتمكن من استرداد المقاطعات في القارة، التي

انتزعت من والده، وأرغم سكان لندن أيضاً على إنقاذ أنفسهم بدفع مبلغ ثقيل من أجل الغاية نفسها، وأرغم اليهود أيضاً، سواء أشاءوا أم رفضوا على دفع الثلث من جميع ماكانوا يمتلكون.

كيف عبر ملك انكلترا مع جيشه إلى بريتاني

بعد عيد الفصح حشد الملك هنري جيشاً كبيراً في ردنغ، يضم جميع نبلاء المملكة، الذين كانوا يدينون له بالخدمة العسكرية، مع أعداد كبيرة أخرى من مختلف البلدان، ثم إنه نقل معسكره من ذلك المكان، وزحف إلى بورتماوث، حيث صعد إلى ظهر السفن مع جيشه كله، وأقلع مبحراً، وبفضل جهود الملاحين في سفنه نزل إلى اليابسة في سينت مالو Malo في بريتاني، ولم يستطع جزء من جيشه السير وراء الملك مباشرة، فنزلوا في اليابسة في أماكن متنوعة، لكن بعون الرب وصلوا جميعاً إلى الملك في بريتاني من دون أذى أو خسارة في مقتنياتهم، واستقبل كونت بريتاني الملك باحترام لائق، وبتكريم، وسلم إليه بلدات وقلاع تلك المقاطعة، ووصل إليه عدد كبير آخر من نبلاء المقاطعة، وقدموا له الولاء، وأقسموا على التبعية له، ورفض أندرو دي فيتري Vitre وعدد قليل آخر من النبلاء، تقديم الولاء إلى الملك، وشحنوا قلاعهم بالمؤن، واستعدوا ببعض القوة للمقاومة، ولدى سماع ملك فرنسا بوصول ملك انكلترا، حشد جيشاً قوياً، وزحف مع ترسة تلمع ورايات تُحفق إلى مدينة أنجو، حيث خط معسكره، وتوقف وقفة طويلة، لإعاقه تقدم الملك الانكليزي نحو بواتو، وكان الملك هنري آنذاك في مدينة ناتي Nates ينتظر وصول المزيد من نجدات العساكر، الذين كانوا قادمين إليه من مختلف الأنحاء، وخلال إقامته هناك ألقى الملك الفرنسي مع جيشه الحصار على قلعة ضعيفة اسمها أودون Oudon وكانت على بعد حوالي الأربعة فراسخ عن ناتي، وبسهولة استحوذ عليها، وهدمها، وعاد بعد ذلك إلى مدينة أنجو.

وحدث في العام نفسه، في اليوم الرابع عشر من أيار، الذي كان يوم ثلاثاء، في اسبوع الابتهاال قبل عيد الصعود، كسوف غير اعتيادي، في الصباح الباكر، بعد اشراق الشمس مباشرة، وأصبحت الدنيا مظلمة إلى حد أن العمال الذي كانوا قد شرعوا بأعمالهم الصباحية، قد أرغموا على ترك أعمالهم، والعودة ثانية إلى النوم في فرشهم، لكن بعد ساعة من الزمان، حدث لدهشة الكثيرين أن الشمس استردت ثانية أشعتها.

وحدث في العام نفسه أيضاً، أن وصل إلى انكلترا، دوق سكسونيا، وكان من أقرباء الملك، فاستقبل بكل تكريم من قبل سكان لندن، وكان هذا الدوق عظيم الطول والحجم، إلى حد أنه أثار إعجاب كل انسان، واحتشد الناس لينظروا إليه، وكأنهم ينظرون إلى مهرجان.

حول الخلافات التي نشبت بين البارونات الفرنسيين

وفي تلك الآونة نفسها، كان جميع النبلاء الفرنسيين مشغولين تقريباً بالحروب أحدهم ضد الآخر، وقد روي بأن دوق بيرغندي، وكونتات: بولون، ودروكس Dreux وماكون، وسينت بول، وبار، والنيلين: انغوراند دي كورسي Enguerrand de Courcy وروبرت دي كورتايني Courtenay وعدد كبير آخر، قد أقسموا على التحالف مع ملك انكلترا، وأعلن هنري كونت بريتاني الحرب ضد كونتي: شامبين، وفلاندرز، ولدى إكمالهم جميعاً خدماتهم لمدة أربعين يوماً في حصار أنجو، حصلوا على الاذن من الملك الفرنسي، وعادوا إلى مقاطعاتهم، وعندما وجد الملك نفسه غير قادر على ابقائهم لحق بهم من أجل إقامة صلح فيما بينهم، لكنه لم يستطع تحقيق هذا بأية وسيلة من الوسائل، لأن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه غزوا أراضي كونت شامبين، وشرعوا بالعيث فساداً فيها بالنار والسيف، وجاء هذا الكونت للتصدي لهم مع قوة كبيرة، وأنشبت معهم القتال، لكن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه كانوا أقوىاء جداً بالنسبة له، وقد أسروا مائتين من

فرسانه وقتلوا ثلاثة عشر، ورأى كونت شامبين، بأن قواته قد هزمت، فهرب من ميدان المعركة، وذلك بعدما فقد جميع أصحابه، وتولى الأعداء مطاردته، وجعلوا طعمة للسيف كل من قابلهم من مؤيديه، ولم يتوقفوا عن المطاردة حتى ساقوا الكونت، إلى داخل أبواب مدينة باريس، وهنا لم يختاروا متابعة مطاردته، فعادوا إلى شامبين، فنهبوا جميع المقاطعة، وهدموا القلاع والبلدات وسووها بالأرض، وأحرقوا القرى والمدن، وقطعوا الكروم وأشجار الفاكهة، ولم يوفروا شيئاً وجدوه خارج الكنائس، وقام هؤلاء النبلاء بمباشرة الحرب ضد الكونت لخيانته للملك، لأنهم قالوا بأنه قام أثناء حصار أفينون بدس السم إلى مولاهم الملك لويس، بسبب حبه للملكة، ومع أنهم غالباً ماتقدموا بعرض الاتهامات ضده في محكمة بلاط الملك الفرنسي بحضور الملك، ورغبوا في البرهنة على أن الكونت كان مجرمًا بمبارزة فردية، قامت الملكة التي تولت ادارة جميع شؤون المملكة، بسبب صغر سن الملك، وانعدام الخبرة لديه، برفض الاصغاء له، ولهذا السبب سحب النبلاء المتقدم ذكرهم ولاءهم من الملك والمملكة، وأحدثوا القلاقل في المملكة بوساطة الحرب، وقد رفضوا بإباء أن تكون سيدة مثل الملكة حاكمة لهم، التي — كما قيل — قد تدنست ليس فقط بعلاقتها بالكونت المذكور، لابل بعلاقتها أيضاً بالنائب البابوي.

مذبحة بين الايرلنديين واعتقال ملوكهم

وفي السنة نفسها، عندما علم في شهر تموز واحد من ملوك كونوت Connaught الصغار في ايرلاندا بأن ملك انكلترا، ووليم مارشال كانا مشغولين بالحرب في القارة، وأن مملكة ايرلاندا كانت خاوية تماماً من القوات العسكرية، جمع جيشاً كبيراً من جميع أرجاء البلاد، وكان يأمل بأن يطرد جميع الانكليز إلى ماوراء الحدود الايرلندية، وبناء عليه غزا مقاطعات الملك الانكليزي، ونشر الدمار، بما في ذلك الاغتصاب

والنهب، وأخيراً وصلت أخبار هذه الغارات إلى غيوفري دي مارش، الذي مارس أعمال المسؤول عن العدالة في ظل الملك في تلك المناطق، وبناء عليه بعث وراء وولتر دي لاسي، ورتشارد دي بورغ للالتحاق به، ومعها صار لديه قوة كبيرة، فزحف بجرأة ضد الأعداء، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، وأعطى قيادة قسمين من هؤلاء الثلاثة إلى الكونتين، المذكورين: وولتر دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، واحتفظ بقيادة القسم الثالث لنفسه، وأخفى القسمين اللذين كانا تحت قيادة وولتر، ورتشارد في الغابات التي كان على العدو العبور بها، وهكذا جعلها كميناً للأعداء، وعبأ القسم الثالث الذي قاده بنفسه، وأعدّه لمواجهة الأعداء وجهاً لوجه، وليثيرهم للقتال، وعندما وصل الأيرلنديون واقتربوا منهم، ورأوا فقط وحدة من الانكليز، انقضوا عليهم، وكأنهم كانوا ضامنين للنصر ومتأكدين منه، وتظاهر الانكليز بالفرار، وقد جرت مطاردتهم من قبل الأيرلنديين حتى دخلوا إلى موضع الكمين، ووقتها اندفع الذين كانوا كامنين من مخبئهم، وملاؤا الأجواء بصراخهم، وهاجموا الأعداء وقتلوهم من الجناح ومن الساقه، أما القسم الأول الذي كان قد هرب من أمامهم، فعاد أيضاً نحو الأيرلنديين، وأعقب ذلك مذبحه مرعبة، وقد قيل بأن عشرين ألفاً من جنود الأيرلنديين قد قتلوا هناك، وأسر ملكهم وسجن.

وفي تلك الآونة، تخلى فولك بيزنل Paisnel وكان نبياً من نورماندي، مع أخيه وليم، عن قلاعها وأراضيها، ووصلا إلى بريتاني، حيث قدما الولاء، وأقسما على التبعية لملك انكلترا، ووصل معها آنذاك ستين فارساً جريئاً وشديداً، وكلهم أشاروا على الملك بغزو نورماندي، وأخبروه أنه سوف يتمكن بشكل أكيد من اخضاع تلك المقاطعة، وقبل الملك بخططهم، لكن هيوبرت دي بورغ لم يسمح لهم بتنفيذ الخطط، قائلاً إنها ستكون محاولة خطيرة إلى أبعد الحدود، ولدى سماع الفرسان

هذا، طلبوا وقتها من الملك منحهم مائتي فارس من جيشه، للالتحاق بهم في غزو نورماندي، ووعدوه أنهم سوف يطردون جميع الفرنسيين من دون اخفاق من تلك المقاطعة، وهذا أيضاً رفض هيوبرت المسؤول عن العدالة السماح به، مؤكداً أنه سيكون عملاً ليس حكيماً أن يعرض الملك جنوده للموت فقط لتلبية رغبته ولسروره، وهكذا وجد هؤلاء النبلاء أنفسهم وقد خدعوا بشكل رهيب، لأن الملك الفرنسي، كان قد تولى على الفور حرمانهم من مواريتهم، وحوّل قلاعهم وممتلكاتهم إلى استخداماته الخاصة.

كيف زحف الملك الانكليزي إلى غاسكوني وتلقى الولاء هناك

وقام الملك بعد هذا، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، بالزحف من بريتاني مع جيشه خلال أنجو، ووصل إلى بواتو، وتابع زحفه من هذه المقاطعة إلى غاسكوني، حيث تلقى ولاء الناس، وبعدها قام ببعض الترتيبات من أجل أمان تلك المنطقة، عاد إلى بواتو، وهناك تلقى ولاء كثيراً من السكان، وفي هذه الحملة حاصر الملك قلعة ميربيل Mirebelle وبفضل الشجاعة العظيمة للانكليز، الذين استمروا بهجوماتهم الحادة عليها، أرغم الملك المحاصرين على الاستسلام، ثم غادر، آخذاً إياهم معه أسرى.

وفي شهر آب من هذا العام، توصل صاحب القداسة البابا غريغوري، والامبراطور الروماني فردريك، إلى اتفاق سلام، وجاء ذلك بوساطة تدخلات المسيحيين والحلفاء من على الجانبين، وذهب الامبراطور الروماني إلى روما، ونال هناك التحليل مع جميع الأماكن التي كانت تحت سلطان الامبراطورية، وأعادهم إليه بأحوالهم وأوضاعهم السالفة، ثم احتفل هذا الكاهن الأعظم مع ذلك الامبراطور الأعظم قدرة مع بعضهما لمدة ثلاثة أيام، في قصر الخبر الأعظم، وابتهج البابا والكرادلة والنبلاء العائدين للامبراطورية، بهذا

التثبيت المفاجيء للسلام، الذي كانوا قد فقدوا كل أمل بقيامه.

وفي العام نفسه، شحن رالف إيرل شيستر القلعة الموجودة في سينت جون دي بيغرون Beveron وزودها بالامدادات والسلاح، وكانت هذه القلعة عائدة بموجب حق الوراثة إلى زوجته الكونتيسة، لأن هنري كونت بريتاني قد تخلى عن القلعة إلى الايرل، عندما التحق بجانب ملك انكلترا، وتسلم من الملك جميع ممتلكاته وامتيازاته في انكلترا.

السلام الذي عمل بين الملك الفرنسي والبارونات

وفي هذا العام، حدث في شهر أيلول، أن الملك الفرنسي، وأمه الملكة، ونبلاء تلك المملكة، الذين كانوا منذ وفاة الملك لويس في حرب واحداهم ضد الآخر، كما ذكرنا أعلاه، أن التقوا في مؤتمر، لمعالجة إقامة سلام، وقد أعدّ وفق الشروط التالية: لقد تقرر بالاجماع من قبل النبلاء المتقدم ذكرهم، وجوب حمل كونت شامبين، الذي كان السبب الرئيسي في نشوب هذا الخلاف، الصليب، وأن يقوم مع مائة من الفرسان بالحج إلى الأرض المقدسة، ليقاتل هناك ضد أعداء المسيح، وأقسم الملك الفرنسي وأمه على الأناجيل المقدسة، بأنهما سوف يعيدا إلى كل واحد من النبلاء امتيازاتهم، وسوف يمارسان العدل نحو جميع رعايا تلك المملكة، تماشياً مع الأعراف التي كانت صحيحة ومحقة بالنسبة إلى الجميع.

عودة ملك انكلترا من بريتاني إلى انكلترا

كان الملك الانكليزي طوال هذا الوقت كله مقيماً مع جيشه في مدينة ناتي، ويفعل لاشيء سوى انفاق ماله، وكذلك فعل الايرلات والبارونات أيضاً، ولأن هيوبرت مسؤول العدالة لدى الملك ماكان ليسمح لهم بالاشتباك بالقتال ضد الأعداء، كان أحدهم يقوم بأعمال الضيافة لآخر، حسبا كانت عادة الانكليز، وأوقفوا أنفسهم على الأكل

والشرب كل بدوره، وكأنهم كانوا يحتفلون بعيد الميلاد، والذين كانوا فقراء بينهم فقدوا خيولهم وسلاحهم، وعاشوا من تلك اللحظة حياة غير سعيدة، وأخيراً بعدما أكمل الملك عمل جميع الترتيبات الضرورية للمنطقة، ترك هناك خمسمائة فارس، وألف من المرتزقة تحت قيادة رالف إيرل أوف شيلستر، ووليم مارشال، ووليم إيرل ألبيارل، مع نخبة من القادة الآخرين، وإثر هذا حمل نفسه وأخذ سفينة، وبعدها تعرض لمخاطر كثيرة، وصل في السادس والعشرين من تشرين الأول إلى بورتماوث، ونزل فيها، حيث قدم عدد كبير من رعاياه من مختلف المراتب لتقديم احترامهم له مع هدايا متنوعة.

ومات غيلبرت إيرل أوف غلوستر وكثير، أثناء عودته من القارة، وأسند الملك إلى هيوبرت المسؤول عن العدالة جميع أراضيهِ ومراتبهِ.

وبعد مغادرة ملك انكلترا للقارة، قام إيرل شيلستر مع القادة الآخرين لجيش الملك هناك ومعهم كامل قواتهم بغارة داخل مقاطعة أنجو، وظلوا غائبين هناك في تلك المنطقة لمدة خمسة عشر يوماً، واستولوا في تلك الأثناء على قلعة غونورد Gonnord وهدموها حتى سووها بالأرض وأحرقوا البلدة، ثم استولوا على قلعة جديدة على السارت Sarte فدمروها، وألقوا النار في البلدة في ذلك المكان، وعادوا بعد ذلك ثانية إلى بريتاني مع أسلاب كبيرة جداً، وليس بعد ذلك بوقت طويل نزلوا بهجوم على نورماندي، واستولوا على قلعة بونتويي Pontoise وقد دمرها بعدما أحرقوا البلدة، ثم عادوا إلى بريتاني دون المعانة من خسائر بالنسبة لهم أنفسهم.

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، حدث خسوف بالقمر، استمر لمدة ثلاث ساعات، وكان جزء صغير جداً منه مرئياً، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر يوماً.

فرض ضريبة بدل عسكري من أجل حملة إلى القارة

عام ١٢٣١م، فيه عقد الملك هنري بلاطه أثناء عيد الميلاد، في لامبث، حيث احتفي به من قبل هيوبرت المسؤول عن العدالة، وفي السادس والعشرين من شهر كانون الثاني التالي، دعا الملك الأساقفة والنبلاء الآخرين العائدين للمملكة إلى اجتماع في ويستمنستر، وفيه طالب الملك بضريبة بدل عسكري مقدارها ثلاثة ماركات عن كل رنك، من جميع العلمانيين وكذلك اللاهوتيين، ومن الذين بأيديهم بارونيات، وبجراحة عارض هذا الطلب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، وعورض أيضاً من قبل بعض الأساقفة إلى جانبه، الذين قالوا بأن اللاهوتيين ليسوا ملزمين بالخضوع إلى الأحكام العلمانية، مثلما منحت ضريبة البدل العسكري في القارة عندما كانوا غير حاضرين، وبعد الكثير من المناقشات من على الجانبين، جرى تأجيل ماتعلق بمعارضة الأساقفة حتى مابعد عيد الفصح بأسبوعين، أما بالنسبة للبقية من رجال دين وعلمايين، وأناس عاديين، فقد استجابوا لرغبة الملك.

الخلاف بين الملك ورئيس الأساقفة

وجاء في هذه الآونة رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك، وقدم إليه شكوى ضد هيوبرت المسؤول عن العدالة، لأنه احتفظ بشكل غير عادل بقلعة تونبردج مع البلدة ومتعلقاتها، وأراض أخرى كانت عائدة إلى غيلبرت إيرل أوف كلير المتوفى، والتي هي عائدة لمسؤول العدالة نفسه وكنيسة كانتربري، ومن أجلها كان الايرل المذكور —وأجداده— قد قدم اعترافاً، وعمل ولاء له ولأسلافه، ولذلك من أجل ذلك السبب طلب من الملك أن يعيد إليه الوصاية على القلعة المذكورة مع متعلقاتها، وللاحتفاظ بامتيازات كنيسة كانتربري سليمة غير متعرضة للأذى، وعلى هذا الطلب رد الملك قائلاً، بأن الايرل المذكور كان مستأجراً اقطاعياً بشكل رئيسي منه نفسه، وأن الوصايات الفارغة لكل

من الايرلات والبارونات وورثتهم «حتى يصلوا إلى سن الرشد» عائدة إلى التاج، وللتاج الحرية في بيعها أو منحها لمن يشاء، وعندما وجد رئيس الأساقفة نفسه غير قادر على الحصول على أي جواب آخر، حرم كنسياً جميع الذين يعتدون على الممتلكات المتقدم ذكرها، وجميع الذين يقيمون اتصالات معهم باستثناء الملك، ومن هذه القضية ومن أجل قضايا أخرى وأسباب، توجه إلى روما للحصول على امتيازاته وامتيازات الكنيسة، ومن جانب آخر أرسل الملك المعلم روبرت دي كانتيلو، وبعض الرسل الآخرين إلى روما للمرافعة من أجل قضيته.

وفي شهر نيسان من هذا العام، بعد عيد الفصح، تزوج رتشارد أخو الملك من كونتيسة غلوستر، التي كانت أخت وليم مارشال، إيرل أوف بيمبروك، وماكادت أفراح العرس تنتهي حتى توفي الفارس الشجاع وليم مارشال، وختم حياته، وقد حزن عليه وبكاه الكثيرون، وفي الخامس عشر من نيسان دفن في المعبد الجديد، في لندن قرب والده.

أعمال العيث فساداً المرعبة التي اقترفت من قبل للويلين في ويلز

وفي شهر أيار من هذا العام، خرج الويلزيون من مخابثهم مندفعين، مثل جردان من جحورها، ونشروا النار والحراب في الأراضي التي كانت من قبل عائدة إلى وليم دي براوس، ولدى زحف الملك نحو هناك مع قوة عسكرية صغيرة، تراجع الويلزيون، كما هي عادتهم، إلى أماكنهم النائية، ثم ذهب الملك إلى الأجزاء الشمالية من البلاد، تاركاً هيوبرت المسؤول عن العدالة في هذه المنطقة، ليصد غارات الويلزيين، وكان هؤلاء ما ان سمعوا بمغادرة الملك، حتى استأنفوا حملات نهبهم، وأغاروا على المناطق القريبة من قلعة مونتغمري، وشرعوا باقتراف أعمال عيثهم فساداً في تلك المنطقة، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الحامية في القلعة، نزلوا للاشتباك بالقتال ضد الويلزيين، لمنع تحركاتهم حول المنطقة من دون معارضة، ولقطع الطريق عليهم

للانسحاب، وقد قتلوا عدداً كبيراً منهم كما أنهم أسروا الكثيرين، وقد سلموا جميع الذين أسروهم أحياء إلى المسؤول عن العدالة، الذي أمر بإعدامهم، وبارسال رؤوسهم إلى الملك، وغضب للويلين من هذه الفعلة غضباً شديداً، فجمع جيشاً كبيراً، وأحدث دماراً مريعاً في أراضي وممتلكات البارونات الذين عاشوا على حدود ويلز، ولم يوفر إلا الكنائس ولا اللاهوتيين، وأحرق عدة كنائس، مع عدد من النساء النبيلات والفتيات اللائي هربن إلى هناك من أجل السلامة.

كيف حرم للويلين كنسياً وكيف هاجم الملك ويلز

وعندما تلقى الملك هنري خبراً عن هذه الجريمة العظمى، جمع جيشاً كبيراً في اكسفورد في الثالث عشر من تموز، وهناك عندما اجتمع جميع نبلاء المملكة، ورجال الدين والناس، قام الأساقفة مع القساوسة الآخرين للكنائس، بحضور الملك، بحرمان للويلين كنسياً وأتباعه الذين أحرقوا الكنائس، وقاد الملك بعد هذا جيشه وزحف بكل سرعة إلى هيرفورد، وكان للويلين مقيماً آنذاك قرب قلعة مونتغمري، في حقل قرب النهر، مغطى بالسبخ، حيث كان ينتظر في كمين ليقاتل فرسان حامية القلعة، وقد قيل بأنه أرسل من ذلك المكان إلى القلعة واحداً من رهبان دير لطائفة السسترشيان كان موجوداً في الجوار، واسمه كوميرا Cumira وعندما رآه فرسان القلعة قادماً نحوهم، خرجوا من القلعة للتحادث معه، وسألوه عما إذا كان قد سمع أي شيء عن الملك للويلين، وعلى هذا رد الراهب بأنه رآه مع حاشية صغيرة في حقل قريب، حيث كان ينتظر ورود قوة أكبر، ووقتها سأل الفرسان الراهب عما إذا كان بإمكان الخيالة عبور النهر والحقل سالمين، وعلى هذا أجاب:

«إن الجسر الذي يستخدمه المسافرون من أجل عبور النهر، قد جرى تدميره من قبل للويلين، لأنه خشي من هجوم من جانبكم، لكن يمكنكم بأمان عبور النهر والحقل على ظهور الخيل، عندما تريدون

وبوساطة عدد ضئيل من الخيالة يمكنكم غلبة الويلزيين، أو ارغامهم على الفرار»، وصدق وولتر دي غودرفيل Godarville قائد حامية القلعة المعلومات المزيفة التي قدمها الراهب، وأمر على الفور أتباعه من الفرسان والجنود بحمل أسلحتهم، وركبوا خيولهم، ومالبثوا أن وصلوا إلى المكان، وعندما رآهم الويلزيون يتقدمون مسرعين، تظاهروا على الفور بالفرار إلى الغابة التي كانت قريبة، وطاردهم فرسان القلعة بكل اندفاع حتى غطسوا في النهر المتقدم الذكر وفي السباح حتى بطون خيولهم، ولاسيما الطلائع بينهم، أما الذين ساروا خلفهم فقد تنبهوا بغطس رفاقهم، الذين أسفوا كثيراً لسوء حظهم، ولدى رؤية الويلزيين لأوضاع أعدائهم، انقضوا بكل سرعة وحرارة عليهم، وتسببوا برماحهم بمذبحة قاسية بينهم، أثناء خوضهم في الوحول، وأعقب ذلك قتال عنيف، وبعد مقتلة كبيرة من على الجانبين، كان الويلزيون هم المنتصرون، ووقع في هذه المعركة جايل بن رتشارد دي أرجنتون Argeton وكان فارساً شجاعاً، بالأسر، ومعه بعض الآخرين، الذين لم أسمع بأسمائهم.

الانتقام الذي تولاه الملك بعد خيانة الراهب هذه، إلخ

عندما وصلت أخبار الفاجعة التي نزلت بفرسانه إلى الملك الانكليزي، زحف بكل سرعة إلى الدير الذي انتمى الراهب إليه، أي الراهب الذي خان الفرسان المتقدم ذكرهم، وكعقوبة على خيانتته، أحرق مزرعة عائدة للدير، وكان ذلك بعدما نهب كل شيء كان فيها، ثم إنه نهب الدير، وأمر بحرقه أيضاً، وقام راعي الدير من أجل انقاذ المباني التي كلفت كثيراً جداً من المال والجهد، فدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك، وهكذا هدأ غضبه لبعض الوقت، وأمر الملك بعد هذا بإعادة بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، بقوة بالحجارة، وهي قلعة كانت قد دمرت قبل بعض الوقت من قبل الويلزيين، وعندما انتهت مقابل نفقات عالية جداً،

وضع فيها حامية من الفرسان والجنود، لمنع غارات الويلزيين.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وإنكلترا

في شهر حزيران من العام نفسه، قاد الملك الفرنسي جيشاً كبيراً لغزو بريتاني، لكن هنري كونت أوف بريتاني، ووالف إيرل شيبستر، أخبرا باقترابه، فكمننا له، وهاجما العربات ووسائل النقل التي كانت تتولى نقل الأسلحة والإمدادات في الساقية، واستوليا على جميع أثقاله، وأحرقا بعد ذلك جميع آلات حربه، واستوليا على ستين فرساً، وبدأ الفرنسيون بعد هذا يعدّون بريتاني بلداً لايرام، ويئسوا من الوصول إلى محصلة مناسبة مع هذه البداية الضعيفة، لذلك شرعوا بالتفاوض من أجل عقد معاهدة، بوساطة رئيس أساقفة الرايم، وفيليب كونت بولون من جانب الفرنسيين وملكهم، وكونت بريتاني، وإيرل شيبستر لصالح الملك الانكليزي، وفي الخامس من تموز جرت الموافقة على هدنة لمدة ثلاث سنوات بين الملكين، وجرى تثبيتها بالأيمان.

وفي شهر تموز نفسه، عاد بطرس أسقف وينكستر إلى انكلترا، بعدما أمضى قرابة الخمسة أعوام في أرض الميعاد، وفاء بعهده بالحج، واستقبل في الأول من آب بمسيرة مهيبة في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر.

ووصل إلى انكلترا في العام نفسه، بعد تثبيت الهدنة، كونت بريتاني، وإيرل شيبستر، مع رتشارد المارشال من القارة، وانطلقوا نحو الملك، الذي كان مايزال مشغولاً في بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، وقد استقبلوا بترحاب من قبله، وقدم رتشارد مارشال نفسه إلى الملك على أنه الوريث لأخيه وليم مارشال، وعرض تقديم الولاء للملك مقابل ميراثه ومن أجله، ومن أجل كل ماعليه فعله في سبيل امتيازاته، وفي اجابة الملك له —بناء على نصيحة هيوبرت المسؤول عن العدالة— أخبره أنه سمع بأن زوجة أخاه المتوفى كانت حاملاً، وبناء على ذلك هو لايمكنه الاستجابة

لطلبه، حتى يمكن كشف حقيقة هذه المسألة، واتهم الملك رتشارد المذكور بالتعامل والتعايش مع أعدائه المعلنين في المقاطعات الفرنسية، ولهذا أمره بمغادرة المملكة على الفور وإلى الأبد، وأعلن أنه إذا ما وجد في المملكة خلال خمسة عشر يوماً، فليسوف يحكم عليه بالسجن المؤبد، وعندما وجد رتشارد نفسه غير قادر على الحصول على جواب آخر، أبحر على الفور إلى إيرلاندا، حيث استقبل ببهجة من قبل جميع فرسان وأتباع أخيه المتوفى، وإليه سلموا جميع القلاع العائدة لأخيه، وقدموا الولاء له وأعلنوا التبعية له، ثم إنه استرد ملكية قلعة بيمبروك، مع جميع الألقاب والمراتب العائدة إليها، ثم جمع جيشاً، وعقد العزم على استرداد الاستحواذ على ميراثه، حتى ولو كان ذلك ضد موافقة الملك، إذا ما اقتضى الأمر، لكن الملك غير أخيراً رأيه، خشية منه بأن يقوم رتشارد المذكور بإثارة الاضطراب، وافساد سلام المملكة، فتلقى الولاء منه مع التبعية، ومنحه جميع امتيازاته، وأبقى فقط الغرامة المعتادة المستحقة له شخصياً.

كيف ذهب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى روما

ومات أثناء عودته

ذهب في هذا العام رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى بلاط روما، وقدم الشكاوى التالية إلى البابا، فقد اشتكى في المقام الأول ضد ملك انكلترا، أنه أدار جميع شؤون المملكة وفقاً لنصيحة هيوبرت المسؤول عن العدالة وحده، مستخفاً بذلك بجميع النبلاء الآخرين، واشتكى أيضاً أن المسؤول عن العدالة قد تزوج من امرأة كانت قريبة من زوجته الماضية، وقد أمسك متلبساً بذلك، وهو ما يزال محتجزاً بعض ممتلكات كنيسة كانتربري، كما أنه اشتكى ضد بعض أساقفته المساعدين، لإهمالهم واجباتهم الأسقفية، فهم يجلسون في محكمة خزينة الملك، ويتولون فحص قضايا العلمانيين، ويصدرون الأحكام في قضايا الحياة والموت،

واشتكى أيضاً أن المنتفعين من الكهنة مع رجال من الطوائف المقدسة يحتفظون بين أيديهم بعدد من الكنائس، التي إليها معهود بوظيفة العناية بالأرواح، ومثل ذلك الأساقفة، حيث حذوا حذوهم، فهؤلاء الناس يتدخلون بالأعمال العلمانية، ويتورطون بالأحكام القضائية العلمانية، وبعدما عرض هذه الشكاوى وأمثالها على البابا، سأل ذلك الحبر استخدام عصا التصحيح لتقويم مثل هذه الآثام، وبعد تقدير صحيح لهذه القضايا، رأى صاحب القداسة البابا، أن شكاوى رئيس الأساقفة كلها مدعومة بالحق والمنطق، فأعطى أوامره على الفور، بوجوب الاعتناء بقضايا شكاوى ذلك الأسقف، وأن تنال العدالة المستحقة، وترافع كهنة الملك، وعرضوا أسباباً كثيرة رداً على الشكاوى، لصالح الملك، لكن ذلك جاء بلا تأثير، لأننا إذا ما أردنا الحديث بإيجاز، حصل نفوذ رئيس الأساقفة له، كل ما طلبه، وبعدما أكمل أعماله حسبما يرضيه، انطلق عائداً، غير أنه مات أثناء سفره، في دير القديس جيمينا Gemina في الثالث من آب، وماتت معه جميع المنافع التي نالها بشأن الأعمال المذكورة أعلاه.

كيف ألقع هنري عن الزواج من أخت ملك اسكوتلندا

في العام نفسه، في شهر تشرين الأول، كان ملك انكلترا، قد أكمل بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، ولذلك عاد إلى انكلترا، وكان قد قرر آنذاك الزواج من أخت ملك الاسكوتلنديين، على الرغم من معارضة جميع الايرلات والبارونات وغضبهم، لأنهم قالوا بأنه من غير اللائق أن يتزوج الملك من الابنة الصغرى، في حين تزوج هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الأخت الكبرى، واقتنع أخيراً بالاقلاع عن هذه النية بوساطة كونت بريتاني، وأعطى إلى تلك النبيلة خمسة آلاف مارك من الفضة، ومن ثم عادت إلى بلادها.

انتخاب رالف رئيساً لأساقفة كانتربري وإلغاء ذلك الانتخاب

بعد وفاة رتشارد، رئيس أساقفة كانتربري، الذي قصصنا خبره أعلاه، قرر رهبان كانتربري المطالبة بأن يكون رئيساً عليهم، رالف دي نيفيل Neville أسقف شيبستر، الذي كان مستشار الملك، وبناء عليه، بعدما عملوا الانتخاب، قاموا في الرابع والعشرين من أيلول بتقديمه إلى الملك، الذي رحب بذلك وقبله، من جانبه وفيما يتعلق به، وقام على الفور بمنحه المزارع والممتلكات الأخرى العائدة لرئاسة الأساقفة، وعندها ذهب الرهبان الذين كانوا على نية الذهاب إلى روما، إلى رئيس الأساقفة المنتخب وسألوه المساعدة في تغطية نفقات رحلتهم، لكنه أخبرهم بوضوح أنه لن يدفع إليهم ولا حتى دريهم من أجل هذه الغاية، ومع ذلك، ذهبوا إلى روما، وطلبوا من البابا أن يثبت بوساطة السلطات الرسولية الانتخاب، أو أن يأخذ بالاقترح الذي تقدموا به، وهنا طلب البابا القيام بفحص للقضية يتولاه — كما قيل — المعلم سيمون لانغتون، وأن يتعرف إلى سمات رئيس الأساقفة المقترح، وبعد هذا ردّ بأن رئيس الأساقفة المقترح هو من رجال الحاشية الملكية وأمي، ولذلك تولى إلغاء ذلك الانتخاب، وأعطى أوامره إلى مجمع الرهبان في كانتربري للقيام بانتخاب رئيس أساقفة مفيد لأرواحهم وأن يعمل على رفع شأن كنيسة انكلترا وتقدمها، وبناء عليه عاد الرهبان، وأخبروا إخوانهم كيف أنهم أخفقوا في تحقيق رغباتهم.

صلف رجال الدين الرومان

ثارت في هذه الآونة في انكلترا انفعالات مع هياج كبير، من الممكن دعوتها عمل طائش قام على التوهم، بسبب صلف رجال الدين الرومان، الذي دفع نبلاء المملكة، وكذلك الذين هم من مرتبة أدنى نحو الانفعال لإنزال عقوبات، كما هو محكي في النص التالي:

«إلى الأسقف الفلاني، وإلى هيئة الكهنة الفلانية، وإلى الجماعة كلها من الذين يؤثرون أن يموتوا على أن يهانوا من قبل الرومان، تحيات:

نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لكم كيف تصرف الأبحار الرومان ونوابهم حتى الآن بأنفسهم نحونا ونحو اللاهوتيين الآخرين في انكلترا، وكيف أنهم أضيفوا منافع المملكة على أتباعهم وعلى مبايحتهم في سبيل انزال الأذى والمضار بكم أنفسكم وبجميع الآخرين في المملكة، وكذلك كيف أصدروا وطبقوا أحكام الحرمان الكنسي ضدكم وضد أتباعكم من الأساقفة واللاهوتيين الآخرين، الذين إليهم تعود جمع المنافع بشكل صحيح، من أجل عدم اضمائكم أية منفعة على واحد من أبناء بلدكم حتى ينال خمسة من الرومان ذلك، أسماؤهم غير معروفة بعد، أي ابن رومفرد Rurfred وأبناء فلان وفلان من الناس، فهؤلاء سوف يعينون محلكم في كل واحدة من كنائسكم في جميع أرجاء انكلترا، وكل واحد سوف يكون دخله مائة باوند، بالاضافة إلى اثقالات أخرى، فرضوها على كل من النبلاء والعلمانيين في المملكة، وأرادوا جبايتها من النذور والصدقات التي عينت من قبلهم ومن قبل أجدادهم من أجل الحفاظ على الفقراء، وكذلك على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، فيما يتعلق بممتلكاتهم ومنافعهم، وهم غير قانعين بهذا كله، بل يرغبون أن ينتزعوا من كهنة المملكة جميع المنافع التي بأيديهم حتى آخرها، من أجل منحها واطفائها على أتباعهم الرومان، أي ليس وفقاً للعدالة، بل تبعاً لأهوائهم ومساوئهم، وهم يسعون بهذه الطريقة إلى تحقيق ما جاء في النبوءة:

«لقد نهبوا المصريين لإغناء العبرانيين، وأن يضاعفوا أناسهم، وأن لايزيدوا سرورهم»، وهكذا كدسوا الأحران فوق الأحران، حتى بات الحال بالنسبة لنا الأفضل أن نموت على أن نعيش هكذا ونحن مظلومين، وبناء عليه، مع أنه قد يكون صعباً بالنسبة لنا «الرفس ضد القراميد»، إنه أيضاً الذي يحك أنفه بقسوة كبيرة يسيل الدم، وبناء عليه، نحن نعدّ حدة هؤلاء الذين جاءوا إلى هنا أولاً كرومان غرباء، والذين

نم الآن لا يستهدفون فقط الحكم، بل إدانتنا، وأن يفرضوا علينا أثقالاً لا تحتمل، وهم على غير استعداد لرفع إحدى أصابعهم، بناء على ذلك قررنا بموافقة عامة — مع أن ذلك جاء متأخراً — أن نعارضهم، بدلاً من اخضاع أنفسنا أية مدة أطول لظلمهم الذي لا يحتمل، أو لتحمل عبودية سيئة، وبناء عليه إننا نمنعكم بكل دقة — أثناء مسعانا لانقاذ الكنيسة، وكذلك الملك والمملكة من نير هذه العبودية الظالمة — من التدخل في قضية هؤلاء المقحمين لأنفسهم في القضايا المتعلقة بالرومان وبمواردهم، واستقروا وكونوا متأكدين أنكم إذا ما خرقتم هذا الأمر، الذي يجرمه الرب، سوف تكون ممتلكاتكم عرضة للحرق، والعقوبات التي سوف ينالها الرومان بأشخاصهم، سوف تنالونها. وداعاً».

التحريم ضد بيع المزارع أو الموارد إلى الرومان

«إلى رجال الدين، وإلى الآخرين الذين بأيديهم مزارع مضمونة من الكهنة الرومان، تقدم إليكم الجماعة المذكورة أعلاه التحيات، إنه بعد مظالم لا عدد لها ولا حصر وأضرار هائلة، تعرفونها أنتم جميعاً، وتعلمون أيضاً كيف أنها أنزلت من قبل الرومان بمملكة انكلترا حتى هذا الحين، من أجل إلحاق الأذى بالملك وبنبلاء المملكة، في المجال الذي يتعلق بندورهم وصدقاتهم وبمنافعهم، وبما أنهم يسعون إلى حرمان رجال دين هذه المملكة من منافعهم، لإضفاء ذلك على الرومان في سبيل إلحاق الأذى الأعظم والعار بالمملكة وبنا أنفسنا، لقد قررنا بموافقة عامة من النبلاء — مع أن ذلك جاء متأخراً — أن نعارضهم، بدلاً من أن نخضع لهم من الآن فصاعداً، وأن نرضخ لظلمهم الذي لا يحتمل، وأن نضبطهم بأن نسحب منهم جميعاً منافعهم في جميع أرجاء المملكة، حتى يتوقفوا عن متابعة ظلمهم مدة أطول، وبناء عليه نحن نأمركم بدقة، أن تتوقفوا من الآن فصاعداً عن الدفع للرومان ضمان الكنائس، أو موارد الأراضي التي بين أيديكم منهم، أو مدانين لهم بها، بل أن تجعلوا هذه

الايجات والموارد جاهزة وأن ترسلوا بها إلى وكيلنا المعين من قبلنا برسالة، من أجل أنه في يوم الأحد الذي يغنى فيه بمزمور «دعوا القدس تبتهج»، سوف يؤكد رعاة الدير، ورؤساء الرهبان في كنائسهم والقساوسة الآخرين ورجال الدين، والعلمانيين في كنائسهم، والبقية، بأنكم إذا لم تطيعوا هذا، فإن ممتلكاتكم سوف تكون عرضة للاحراق، ولسوف تجنون الخطر الذي الرومان معرضون له بأشخاصهم، وداعاً»، ونشرت هذه الجماعة المتقدم ذكرها، بوساطة فرسانها ووكلائها، هذه الرسائل، وهي موهورة بختم جديد، عليه جرى حفر سيفين، وقد نقش النص التالي بين السيفين: «انظر هاهنا سيفين»، حسبما جرت العادة بالاقبتاس بالنسبة للكنائس الكاتدرائية، مبيين أن كل من يجدوه معارضاً لهم، سوف يعاقبونه وفقاً لقوانينهم وأوامرهم.

المحكمة اللاهوتية التي عقدت في دير القديس ألبان

وإلقاء القبض على سينشوس

وفي تلك الآونة نفسها، في السابع عشر من كانون الأول جرى عقد محكمة لاهوتية كبيرة في دير القديس ألبان، وضمت رعاة الدير، ورؤساء الرهبان، ورؤساء الشمامسة وجميع نبلاء المملكة تقريباً، وقد اجتمعوا جميعاً بموجب أوامر البابا، من أجل احداث طلاق بين كونتيسة اسكس وزوجها، إذا توفر سبب جيد لذلك، وفي اليوم التالي بعد انفضاض المؤتمر، وعندما كان الجميع عائدون إلى مواطنهم المختلفة، كان هناك رجل دين روماني، اسمه سينشوس Cincius وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، قد جرى اعتقاله بوساطة توكيل من قبل الجمعية المتقدم ذكرها أعلاه، وقد نقله بعيداً بعض الرجال المسلحين، الذين كانت رؤوسهم مغطاة، وقد نجا المعلم جون الفلورنسي، الذي كان رئيس شمامسة نورويك، فهو كان حاضراً أثناء المؤتمر، وقد نجا من القبض عليه، وهرب إلى لندن، حيث بقي هناك

متخفياً لعدة أيام، وبعد مرور خمسة أسابيع أعيد سينشوس سالماً وصحيحاً إلى لندن، لكن — كما قيل — وحافطة نقوده فارغة.

مصادرة بالقوة للقمح في ونغهام

عام ١٢٣٢م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، حيث قدم بطرس أسقف تلك المدينة الأشياء المحتاجة للاحتفاء به، وقدم هدايا ملابس العيد إلى الملك، وكذلك إلى أتباعه، وخلال أسبوع عيد الميلاد كانت هناك مخازن حبوب مليئة في ونغهام Wingham ملكاً لكاهن روماني وقد جرى نهبها من قبل مجموعة صغيرة من الرجال المسلحين، الذين كانت رؤوسهم مغطاة، وقد عملوا — كما قيل — بناء على أوامر من الجمعية التي تقدم ذكرها أعلاه، وعندما سمع المشرف والوصي على تلك الكنيسة بهذا العدوان، ذهب إلى عمدة الكونتية، وأخبره بهذا الخرق لسلام الملك، وعن الأذى الذي أنزل بمولاه، وما كان من العمدة إلا أن أرسل وكلاءه مع بعض الجنود إلى المكان، وأمرهم أن يكتشفوا ماكانته القضية، ولدى وصولهم إلى المخازن، رأى الجنود هناك أولئك الرجال المسلحين الذين كانوا غير معروفين تماماً بالنسبة إليهم، وكانوا آنذاك قد أفرغوا المخازن تقريباً، وباعوا القمح وفق شروط جيدة، لصالح جميع المنطقة، وأعطوا أيضاً من باب الصدقة شطراً منه إلى الفقراء الذين طلبوا ذلك، ولدى وصول الجنود إليهم سألوهم من أين جاءوا، وكيف تجرأوا على خرق سلام الملك، واقتراف مثل هذا العدوان، وبناء على ذلك أخذوا الجنود جانباً، وأروهم على الفور تراخيص من الملك، تمنع أي إنسان من اعاقبتهم، ولدى رؤية الجنود بأنفسهم ذلك، ومعهم بعض الآخرين الذين أقبلوا إلى هناك، انصرفوا بهدوء، وتمكن هؤلاء الرجال المسلحون، خلال خمسة عشر يوماً من بيع جميع القمح، ومن ثم انصرفوا وجيوبهم مليئة، ونقلت أخبار هذه الواقعة إلى روجر أسقف لندن، وبناء عليه جمع عشرة

أساقفة، وقام في اليوم الذي أعقب عيد القديسة العذراء المباركة سكولا ستিকা Schola stica [١٠-شباط]، في كنيسة القديس بولص في لندن، فحرم كنسياً جميع مقترفي هذه العملية من جرائم العنف، وأدخل في هذا القرار جميع الذين ألقوا أيديهم بعنف على سينشوس، الكاهن في كنيسة لندن، وشمل ذلك أيضاً جميع أعضاء الجمعية المذكورة أعلاه، وكذلك جميع الذين كتبوا وختموا الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه.

كيف طلب الملك هنري مساعدة مالية

في السابع من آذار، في هذا العام، اجتمع نبلاء المملكة، والعلمانيين والأساقفة في مؤتمر جرى عقده في ويستمنستر، وذلك بناء على طلب من الملك، وحضوره، وهناك شرح لهم، أنه متورط بديون ثقيلة، بسبب الحرب التي قام بها مؤخراً في القارة، وهو مدفوع بسبب الحاجة ليطلب المساعدة منهم جميعاً وبشكل عام، وإثر سماع هذا، قام رالف إيرل أوف شيلستر، فتحدث باسم بقية النبلاء، وعمل رداً على الملك أوضح فيه بأن الايرلات، والبارونات، والفرسان الذين كانوا مستأجرين اقطاعيين رئيسيين لدى الملك، والذين كانوا حاضرين أيضاً بأشخاصهم، بأنهم صرفوا أموالهم وبددوها من دون هدف وغاية، إلى حد أنهم عندما غادروا القارة، غادروها رجالاً فقراء، وبناء عليه، إنه بموجب الحق، ليس عليهم تقديم عون إلى الملك، وعند ذلك سأل العلمانيون جميعاً من النبلاء الإذن بالانصراف، وغادروا المؤتمر، أما الأساقفة فقد أجابوا على طلب الملك قائلين بأن هناك عدداً كبيراً من الأساقفة، ورعاة الدير، الذين وجهت الدعوة إليهم، لكن لم يحضروا، ولذلك سألوهم تأجيل القضية حتى يتمكنوا من الاجتماع ثانية في يوم يجري تحديده، وبناء على ذلك جرى تحديد يوم، وكان بعد مضي أربعة عشر يوماً، بعد عيد الفصح، ليجتمعوا فيه من أجل تقرير الذي ينبغي فعله بموجب الحق.

وفي العام نفسه، انتخب المجمع الديرى فى كانتربرى، ريس الرهبان جون، ليكون ريس أساقفتهم، والمسؤول عن أرواحهم، ولدى تقديمهم إياه إلى الملك قبله، ثم إنه انطلق يريد روما ليحصل على تثبيت صحيح لهذا الانتخاب من الكرسي الرسولي.

رؤيا مدهشة تتعلق بالملك رتشارد

وفي تلك الآونة، كان هنري أسقف روكستر، يؤدي قداساً إلهياً، في يوم الأحد، عندما يغنى المزمور الذي فيه (تعالوا إلى الماء، أنتم أيها العطاشى جميعاً)، وكان ذلك في مكان اسمه ستينغبورن - Sit-tingbourn بحضور ريس الأساقفة المنتخب لكانتربرى، ومحاطاً برجال الدين وبالناس، عندما عمل بثقة وجرأة الاعلان التالي:

«اخواني في الرب الذين أنتم هنا حضوراً، افرحوا جميعاً، كونوا متأكدين وواثقين أنه في اليوم الأخير نفسه، قد خرج رتشارد، الذي كان من قبل ملك انكلترا، وستيفن، ريس أساقفة كانتربرى الأخير مع واحد من قساوسة ريس الأساقفة المذكور، قد خرجوا من موضع العذاب، وظهروا أمام الجلالة اللاهوتية، وهؤلاء الثلاثة فقط قد غادروا المطهرة في ذلك اليوم، ويمكنكم أن تثقوا ثقة مطلقة بكلماتي، لأن هذا قد أبيع لي برؤيا، أو لواحد آخر ثلاث مرات، بكل وضوح، إلى حد أن جميع الشكوك قد زالت من عقلي»، وبما أن الإشارة قد وردت هنا حول الملك النبيل رتشارد، سوف أقص خبر واقعة حدثت له، من أجل تنوير قرائي.

كيف رأى رتشارد تمثال المسيح حانياً رأسه نحو متعبد

كان هناك خلال حكم الملك رتشارد، أحد الفرسان يعيش في الغابة الجديدة، وقد مارس لمدة طويلة بشكل سري صيد غزلان الملك، وقد ألقى القبض عليه في إحدى المناسبات، ومعه لحم طرائد مسروق،

وبقرار من محكمة بلاط الملك المذكور أدين بالنفي، وكان رتشارد الملك الرحيم قد لطف القانون المتعلق بلحوم الطرائد المسروقة، الذي كان لأسلافه قاسياً جداً، حيث كان الذي يقبض عليه متلبساً بهذا العدوان، كانت تقتلع عيناه، وتجتث أعضاؤه مع يديه ورجليه، لكن هذه العقوبات بدت إلى الملك التقي رتشارد أنها غير انسانية، في أن يحرم الانسان، الذي خلق على شكل الرب من حياته أو من أطرافه من أجل حيوان، فالحيوانات، قد أعطوا — وفقاً لقانون الطبيعة للاستخدام العام من قبل الجميع — فبموجب تلك القوانين بدا الانسان وكأنه أقل أهمية من حيوانات البرية، وقد رأى على كل حال وقدّر، أن العقوبة الكافية تماماً بالنسبة إلى أي انسان أمسك متلبساً باقتراف تلك الجريمة، إما أن ينفى من انكلترا، أو أن يدخل السجن، محتفظاً بحياته وأطرافه، وأرسل الفارس المتقدم الذكر إلى المنفى، وهذا الرجل الذي كان قد تمتع من قبل بجميع مباحج الحياة مع زوجته وأولاده، قد أرغم الآن على التسول من أجل خبزه بين الأجانب، وقرر الفارس بعد تقليب لوجوه القضية، أن يلتمس أخيراً رحمة الملك، وأن يطلب إعادة ملكيته الأرضية له، وبناء عليه ذهب إلى الملك في نورماندي، حيث وجده في الصباح الباكر في كنيسة على وشك الإصغاء إلى قداس، ودخل الفارس الكنيسة وهو يرتجف، ولم يتجرأ على أن يرفع عينيه نحو الملك، الذي وإن كان أكثر الناس رشاقة وبهاء أن تنظر إليه، كان هناك فيه شيئاً مرعباً في نظرتة، ولذلك ذهب إلى تمثال المسيح على الصليب، فبكى بدون توقف، والتمس وهو جاث على ركبتيه من المصلوب، من خلال نعمته التي لا يمكن وصفها، أن يصنع سلاماً بينه وبين الملك، به يتمكن من استرداد ميراثه المفقود، ورأى الملك الفارس، وهو يصلي هكذا بحرارة، ويكي بتقوى غير خفية، وهنا شاهد واقعة رائعة جديدة بالحديث عنها، لأنه كان كلما حنى الفارس — الذي لم يعرفه بين حاشيته — ركبتيه ليتعبد التمثال، قام التمثال بكل تواضع بحني رأسه وكتفيه، وكأن ذلك

كان استجابة للفرس، وأصيب الملك بالدهشة والعجب لدى رؤيته هذا يتكرر مراراً، وما أن انتهت أعمال القديس حتى أرسل خلف الفارس ليتحدث إليه، وسأله من كان هو، ومن أين جاء، وردّ عليه الفارس آنذاك وهو خائف، وقال: «إنني يامولاي من رعيتك التابعين لك، مثلما كان أجدادي أيضاً»، ثم بدأ يقص عليه تاريخه، وأخبره كيف أنه حرم من ميراثه، ونفي مع أسرته، لأنه ألقى القبض عليه مع بعض لحم الطرائد المسروقة، ثم سأل الملك الفارس: «هل فعلت قط في حياتك عملاً جيداً صدوراً عن الاحترام والتشريف للصليب المقدس؟»، ثم إن الفارس، بعدما تفكر حول أحداث ماضيه بكل دقة، قص على الملك الحادثة التالية التي قام بها صدوراً عن احترامه للمسيح.

كيف أبقى الفارس على حياة عدوه صدوراً عن احترامه للمسيح

ولقد قال: «اقتسم أبي مع فارس آخر، بينهما بلدة، آلت إليهما بحق الميراث، وفي الوقت الذي كان فيه أبي محاطاً بجميع أنواع الثروات، كان الفارس الآخر على العكس، دائماً فقيراً وبحاجة، وصار حاسداً لأبي، وقد قام بشكل خياني بقتله، كنت آنذاك طفلاً، لكن عندما وصلت إلى سن الرجولة ونصبت في ميراثي الأبوي، اتخذت قراراً الزامياً بقتل ذلك الفارس، انتقاماً لموت أبي، وقد جرى تحذيره وانذاره مسبقاً بنيتي، وقد نجا لمدة سنوات ببراعته من المصائد التي نصبتها له، وبعد طويل وقت، كنت في يوم الاستعداد، الذي كان هو اليوم الذي حمل فيه يسوع المسيح صليبه من أجل خلاص العالم، ذاهباً إلى الكنيسة، لسماع القديس، فرأيت عدوي أمامي أيضاً وهو على طريقه إلى الكنيسة، فأسرعت أسير خلفه، وجردت سيفي لأقتله، عندما نظر بالصدفة نحو الخلف، ولدى رؤيته لي أنقض عليه، هرب نحو صليب كان واقفاً قرب الطريق، وحيث أنه كان منهكاً بسبب تقدمه بالسن، لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه، وعندما حاولت ساعياً لقتله بسيفي المشهور، ولتحطيم رأسه

واخراج ونشر دماغه، طوق الصليب بذراعيه، ورجاني باسم ذلك المسيح، الذي علق في ذلك اليوم على الصليب، لتخليص العالم كله، أن لا أقتله، ووعد مخلصاً ونذر، أنه سوف يعين قسيساً يؤدي قداساً اعتباراً من ذلك اليوم من أجل روح والدي الذي قتله، وأن يكون ذلك يومياً، وعندما رأيت الرجل العجوز وهو يبكي أشفقت عليه، وصدوراً عن حبي وتقديري للذي من أجل خلاصي وخلاص الجميع قد صعد إلى الصليب، وكرسه بدمه الأعظم قداسة، فعفوت عن ذلك الفارس من أجل مقتل أبي»، وعندها قال الملك للفارس: «لقد تصرفت بحكمة، لأن ذلك المصلوب قد سدّد لك الآن حسنة إثر حسنة أخرى»، ثم إنه استدعى الأساقفة والبارونات الذين كانوا هناك معه، وعلى مسمع من الجميع قصّ عليهم الرؤيا التي شاهدها، وكيف أنه كان كلما عمل الفارس انحناءة بركبتيه، كان تمثال المسيح يقوم بتواضع بانحناءة برأسه وبكتفيه، ثم إنه استدعى مستشاره إليه، وأمره أن يكتب رسالة موثقة يأمر بها العمدة الذي سوف يسميه الفارس إليه، أن يقوم فور رؤيته الوثيقة، بإعادة جميع الممتلكات العائدة إلى الفارس، إليه، في الأحوال نفسها كما تسلمها أثناء القيام بنفيه.

صبر الملك أثناء مضايقته

في الوقت الذي نتحدث فيه عن فضائل ذلك الملك النبيل، علينا أن لانحذف ذكر، أنه فور تتويجه، قدم دوماً عدالة دقيقة إلى كل واحد، ولم يسمح قط بحرفها بوساطة الرشوى، ومنح على الفور جميع الأسقفيات ورعاة الديرة الشاغرة إلى من يشغلها، من دون شراء، وجاء المنح إلى كهنة جرى انتخابهم بشكل قانوني، ولم يمنح هذه المناصب، ولم يعهد بها قط إلى رجال علمانيين، ونظر إلى جميع رجال الدين المكرسين، ولاسيما أتباع الطوائف الدينية منهم، نظرة احترام كبيرة، ونظراً لاحترامه ليسوع المسيح، كان يخاف كثيراً من ايذائهم، حتى أنه حدث في إحدى المرات،

عندما كان أساقفة المملكة جميعاً مجتمعين أمام الملك بناء على أمر من البابا، حتى يعملوا منحة جزء من عشرين من جميع الممتلكات المتحركة لمساعدة الأرض المقدسة، وكانوا جالسين على انفراد يتباحثون حول القضية، قال الملك بصوت منخفض لغيوفري فتز - بيتر، وإلى وليم بريوير اللذان جلسا عند قدميه: «هل تريان أولئك الأساقفة الجالسين هناك؟»، فأجاباه: «نعم نحن نراهما يامولاي»، وعندها قال الملك لهما: «لو علموا إلى أي مدى أحترمهم بالرب، وأنا أخاف منهم، وكيف أنني لأرغب بايذائهم، سوف يدوسون عليّ وكأنتي حذاء قديم مهترىء»، وينبغي أيضاً أن نذكر باعجاب، كيف أنه تخلى عن مسار ومباهج المملكة التي حصل عليها حديثاً، حباً منه للملك الأبدي، وكيف أنه أفنق أمواله وأموال أبيه المتوفى في خدمة المسيح، ومن أجل تحرير الأرض المقدسة، وكيف استولى بشجاعة على جميع أرض الميعاد، إلى جانب مدينة القدس المقدسة، وانتزعها من أيدي أعداء الصليب، وعندما نقصت أمواله هناك، عمل هدنة لمدة ثلاثة أعوام، وحصل على إذن من صلاح الدين بالسماح للكهنة بإقامة قداس للصليب عند ضريح ربنا، وذلك كل يوم حتى انتهاء مدة الهدنة، وأن يكون ذلك على حسابه الخاص، ثم إنه غادر إلى بلاده، وجند قواته، وجمع مالاً، وعند نهاية الهدنة عاد، تاركاً المملكة وجميع الممتلكات التي كانت تحت سلطانه في البلدان الغربية، حتى يتمكن من التتويج ملكاً في مدينة القدس المقدسة، وتولى قيادة قواته، وقاتل في معارك رب السبت، وسعى لاختضاع أعداء الصليب مادام حياً، لكن عدو الجنس البشري الذي هو حسود بشكل دائم للأعمال الجيدة، ولتقدم المسيحية، أثار ضد هذا الملك التقى، دوق النمسا، والامبراطور الروماني، الذي نصب له المصائد، أثناء عودته من الأرض المقدسة، وعندما اعتقل من قبل أعدائه، بيع مثل ثور أو أتان إلى الامبراطور الروماني (١)، ثم سجن، وعوامل بسوء بعيداً عما يليق

١ - تتناقض هذه الرواية مع جميع الروايات المتداولة.

بشخص عظيم مثله، وأرغم على دفع مبلغ كبير فدية له، وفضلاً عن هذا أعاق الملك الفرنسي خططه بغزوه ممتلكاته، عندما كان مشغولاً في خدمة الصليب، ومع أنه أعيق هكذا من قبل أعدائه في جميع الجهات، ثابر في عقله العمل على نيل الشهادة، التي لم يكن قد نالها بعد بالجسد، وكان قد قرر أن يحصل عليها في أرض الميعاد، لأنه اشتاق إلى العودة ولأن يموت في خدمة الصليب، وبالإضافة إلى هذه المحن كلها، عندما كان الملك المذكور غائباً في الحملة الصليبية، تآمر أخوه الايرل جون لاختصاص انكلترا لحكمه، وحاصر القلاع، وعمل حرباً ضد أخاه، ولكن لإخلاء الانكليز في ولائهم، أحبطت خطته.

ولكم هو رائع ثبات هذا الملك النبيل، الذي لم ينحن قط أمام العدوان، ولم يستبد به العجب أثناء النجاحات، وبدا دوماً مشرقاً، ولم يظهر فيه قط أية إشارة على عدم الثقة بالنفس، ومنحت هذه السمات ومماثلها ملكنا رتشارد مجداً في نظر الرب العلي الأعلى، وعلى هذا عندما حان الوقت الآن، وعندما وصلت رحمة الرب، جرى نقله باستحقاق — كما نعتقد — من أماكن العقوبة، إلى المملكة السرمدية، حيث وضع المسيح، ملكه الذي خدمه باخلاص، هناك لجنوده تاج العدالة، الذي وعد به الرب إلى الذين يحبونه، وحيث يعيش بحبور برفقته أولئك القديسين الذي أنقذ آثاهم في أرض الميعاد، وخلصها من صلاح الدين، مقابل اثنتين وخمسين قطعة ذهبية، مع التقدير أن هؤلاء القديسين ينبغي أن يساعده وقت الشدائد بوساطتهم بالحصول على حظوة الرب، وكانت هذه الآثار المقدسة قد تولى جمعها المسلمون من أرجاء اليهودية والجليل، في أيام الاستيلاء على الأرض المقدسة، وعلى الصليب المبجل، ووضعت في أربعة صناديق من العاج، كان كل واحد منها ثقيلاً إلى حد أنه ما كان بإمكان أربعة رجال أن يحملوه إلاّ بصعوبة، وقد جرت حكاية هذه الوقائع بشكل كامل وأكثر تفصيلاً، أثناء رواية وقائع حكم الملك رتشارد المذكور.

بيع حاصلات رجال الدين الرومان

وجرى في العام نفسه الاستيلاء على قمح رجال الدين الرومان، وبيعه من قبل بعض الناس الذين كانوا غير معروفين، وذلك وفق شروط جيدة لصالح كثيرين، وقد شرعوا بهذا العمل الجريء في أيام عيد الفصح، واستمروا به من دون أية معارضة، وكانوا كرماء في منح الصدقات إلى المحتاجين الذين جاءوا إليهم، ونشروا أحياناً المال بين الفقراء، وجلس رجال الدين الرومان متخفين في الديرة، ولم يتجرأوا على التذمر من الأذى الذي لحق بهم، ذلك أنهم فضلوا أن يفقدوا جميع ممتلكاتهم على أن يحكم عليهم بالموت.

وكان الذين قاموا بهذه الأعمال الجريئة حوالي الثمانين من حيث التعداد، وكانوا في بعض الأحيان أقل من ذلك، وكان مقدمهم واحد اسمه وليم، ولقبه ويزر Wither وقد أطاعوا تعليماته في كل شيء، ومالبت أخيار هذه الوقائع أن وصلت إلى مسامع الخبر الأعظم، فغضب غضباً عظيماً، وبعث برسالة حادة إلى ملك انكلترا، لأمه فيها للسماح لمثل هؤلاء اللصوص بالاعتداء على اللاهوتيين في مملكته، دون أن يقدم الاحترام إلى اليمين الذي أداه، عندما جرى تنويجه، الذي قضى ليس فقط بالحفاظ على السلام نحو الكنيسة، بل بالالتزام بتطبيق عدالة دقيقة نحو رجال الدين ومثل ذلك نحو العلمانيين، وأمره بالرسالة نفسها بأن يلتزم بدقة — تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين — بالأمر بالقيام ببحث دقيق عن مقترفي هذه الجريمة، ومعاينة المجرمين بشدة، من أجل أنه بمعاقتهم يمكن أن ينزل الخوف والرعب في قلوب الآخرين، كما أنه بعث رسالة إلى بطرس أسقف وينكستر، وإلى راعي دير القديس إدموند، بأن يقوموا ببحث دقيق وأن يتقصوا في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، وأن يتولوا إدانة جميع الذين يجدونهم مدانين بهذه الجريمة، وأن يعدوهم لمحرومين كنسياً، حتى

يأتوا إلى روما من أجل التحليل من قبل الكرسي الرسولي، ووفق الطريقة نفسها، عهد في شمالي انكلترا، القيام بالبحث نفسه إلى رئيس أساقفة يورك، وإلى أسقف درم، وإلى جون الذي كان كاهناً في يورك، ورومانيا من حيث المولد، وأمرهم بارسال الذين هم مجرمين مدانين بهذه الجريمة، دون الالتفات إلى أي مرافعة استئناف.

البحث الذي عمل في قضية السرقة المتقدم ذكرها

وبناء عليه أقيم بحث وتقصي حول هذه القضية من قبل الملك، والأساقفة، والوكلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وبوساطة الحرمان الكنسي بناء على يمين، وعن طريق تقديم الشهود جرى الكشف عن عدد من المعتدين، كان بعضهم رئيسيين، وبعضهم الآخر محرضين، وكان بعض هؤلاء من أساقفة الملك ومن رجال الدين، وكان بعضهم أيضاً من رؤساء الشمامسة والعمداء، مع عدد من الفرسان والعلمانيين، وكان هناك أيضاً بعضاً من عمد المناطق والرؤساء الإداريين لديهم، وقد اعتقلوا بناء على أوامر الملك وسجنوا بسبب هذه الجريمة، وأخذ آخرون حذرهم، ورأوا أن سلامتهم بالفرار، ولذلك هربوا ولم يعد بالامكان العثور عليهم، وقد قيل بأن هيوبرت دي بورغ المسؤول عن العدالة لدى الملك، كان هو المحرض الرئيسي في هذه القضية، بسبب أنه أعطى هؤلاء اللصوص تراخيص من الملك، ومنه شخصياً، لمنع أي إنسان من اعتراضهم أثناء السرقات المذكورة، وكان بين البقية الذين وصلوا إلى الملك، روبرت دي توني Tuinge وكان رجلاً جريئاً، وكان قد اتخذ لنفسه اسم وليم ويزر، ومع الآخرين الذين حرضوه باع محاصيل رجال الدين الرومان، وقد استأجر خمسة مسلحين ليكونوا أعواناً له ومساعدين في اعتداءاته، وأعلن هذا الرجل بشكل مكشوف أنه خرق القانون كراهية منه للرومان، وفي سبيل انتقام عادل، لأن أولئك الرومان المذكورين، كانوا يسعون بموجب قرار من الخبر

الروماني، وبشكل غير شرعي، إلى حرمانه من الكنيسة الوحيدة التي امتلكها، وأضاف أيضاً يقول بأنه بالحري يفضل بأن يجرم كنسياً لبعض الوقت على أن يسلب من مصدر رزقه من دون محاكمة، وبناء عليه نصح الملك مع الوكلاء المذكورين هذا الفارس، بعدما حصل على القرار القاضي بحرمانه، بالاسراع بالذهاب إلى روما، وأن يعرض قضيته أمام صاحب القداسة البابا، وليبرهن أنه استحوذ على الكنيسة بشكل شرعي وقانوني، وأعطاه الملك رسائل تشهد له، ليسلمها إلى البابا، والتمس من ذلك الخبر، أن يوافق بلطفه على منح الفارس طلبه.

كيف جرى إلغاء انتخاب رئيس رهبان كانتبري في روما

في اسبوع أحد الشعانين من العام نفسه، ذهب رئيس الرهبان جون، الذي هو رئيس الأساقفة المنتخب لكانتبري، إلى روما، وأظهر وثيقة انتخابه وأراها للبابا، الذي بناء عليه أمر المعلم جون دي كولونا Co-lonna وبعض الكرادلة الآخرين بفحصه، واكتشاف فيما إذا كان شخصاً مناسباً ولائقاً للترقية إلى ذلك المقام الرفيع، وبعد امتحان لمدة ثلاثة أيام، سألوه خلالها بدقة حول تسع عشرة نقطة، أعلنوا — كما قيل — إلى البابا أنهم لم يجدوا سبباً شرعياً لرفضه، لكن الذي بدا — على كل حال — للبابا هو أنه كان متقدماً بالسن كثيراً، وبسيطاً، وبالتالي غير لائق لمثل هذا المقام الرفيع، ولذلك نصحه بالاستقالة، وبتواضع قام رئيس الأساقفة المنتخب بالاستقالة من الانتخاب الذي عمل، وطلب الاذن ليعود إلى الوطن، وعندئذ منح البابا اذنناً إلى الرهبان لانتخاب واحداً آخر، وأمرهم أن يختاروا واحداً يمكن أن يعهد إليه بواجبه، وبالمسؤولية الأسقفية.

كي صرف الملك الانكليزي بعض وزرائه من مناصبهم

وأغار في هذه الآونة اللويلين الزعيم الويلزي على أراضي بعض

البارونات الانكليز، وشرع حسب طريقته المعتادة بالعيث فساداً في المنطقة بالسلب والنار، وبناء عليه ذهب بطرس أسقف وينكستر وبعض المستشارين الملكيين إلى الملك، وأعلنوا أنه عار كبير بالنسبة لتاجه أن يقوم هؤلاء اللصوص الذين لايساوون شيئاً، أي الويلزيين، بالجولان كما يريدون خلال أراضيهم وأراضي هؤلاء البارونات، وهم يعيشون فساداً في جميع المناطق بالنار، ولايتركون شيئاً دون أن يتعرض للأذى، وقال الملك في جوابه لهم:

«لقد أخبرني رجال المال لدي، أن جميع موارد خزيتي بالكاد تكفي لشراء طعام عام لي وملابس، ولدفع العطاءات المعتادة، وبناء عليه الفقر يمنعني من الدخول بالحرب»، ورد مستشارو الملك عليه قائلين:

«إذا كنت فقيراً، ماعليك إلا لوم نفسك لذلك، لأنك حولت جميع المناصب الشاغرة، والمسؤوليات، والوظائف السامية، وأبعدتها عن الخزانة، ولذلك لايمكن تسميتك ملكاً لثرواتك، بل فقط بالاسم، لأن أجدادك الذين كانوا نبلاء، وأغنياء بمجد ثرواتهم، قد جمعوا مبالغ من المال لاحد لها ولاحصر، من منتجات المملكة وتعويضاتها»، وقد أثير الملك من قبل هؤلاء الذين سيكون شيئاً أن نذكرهم بالأسماء، وغضب بسبب الاهانات التي تلقاها من مستشاريه، وطلب على الفور من عمد المناطق، ومن النواب، والوكلاء الآخرين التابعين له، تقديم حساب عن الموارد، وعن كل شيء له علاقة بالخزينة الملكية، وكل من وجده بينهم مجرمًا بالغش، صرفه من وظيفته، وطالب المعزولين بالمال المستحق له، مع الفائدة، وأبقاهم في السجن حتى دفعوا الدين كله، وعزل رالف الذي لقبه بريتون Breton وكان المتسلم لخزنته الخاصة، من وظيفته، وأخذ منه ألف باوند من الفضة، وعيّن مكانه بطرس دي ريفوكس Rivaux وكان من أهل بواتو، وهكذا قام الملك في وقت قصير، فملاً ثانية وظائفه الشاغرة، لكن ليس اشغالاً كاملاً.

كيف طلب الملك جرد حساب من هيوبرت المسؤول عن العدالة

وفي تلك الآونة، صرف الملك -بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر- هيوبرت دي بورغ المسؤول الرئيسي عن العدالة، وعزله من وظيفته، وفي التاسع والعشرين من تموز، عيّن ستيفن دي سيغريف -وكان فارساً- مكانه، وبعد مضي عدة أيام، غضب كثيراً من هيوبرت الذي عزل مؤخراً، فطالبه بأن يقدم على الفور جرد حساب عن جميع الأموال الذي دفعت إلى خزينته، وعن الديون المستحقة له، خلال أيام أبيه، وأيضاً خلال أيامه، ثم طالبه بتقديم حساب عن ممتلكاته، التي آلت إليه وتملكها يوم وفاة وليم إيرل بيمبروك، الذي كان وقتها المارشال والمسؤول عن العدالة، وكذلك بالنسبة لما استحوذ عليه في انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وبواتو، وأيضاً فيما يتعلق بالامتيازات التي كانت آنذاك بين يديه في الغابات، والمطارد، والكونتيات وفي أماكن أخرى، وتبيان كيف أنه احتفظ بهم، وكيف جرى عزلهم، وكذلك فيما يتعلق بضرائب الجزء من خمسة عشر، ومن ستة عشر، والدخول الأخرى المتسحقة لخزينته، وكذلك الحال بالنسبة للمعبد الجديد في لندن وفي أماكن أخرى، وكذلك ما يتعلق بالغرانات التي فرضت من أجل التخلي عن حقوقه في الأرض، وكذلك الحال بالنسبة للممتلكات المتحركة، وكذلك ما يتعلق بالخسائر التي عانى -الملك- منها بسبب إهمال هيوبرت، ومثل هذه الأموال التي جرى تبديدها بالحرب أو في أي طريقة أخرى، من دون أية فائدة له شخصياً، ومثل ذلك ما يتعلق بالامتيازات التي تمتع بها هيوبرت شخصياً في الأراضي، والأسقفيات، والوكالات التي عينت له من دون ترخيص، والتي هي عائدة إلى الملك نفسه، وكذلك ما يتعلق بالأضرار وبالأذى الذي لحق بالرومان وبرجال الدين الطليان، وبرسل البابا، وذلك ضد رغبات الملك، من قبل هيوبرت المذكور، الذي لم يقدم أية نصيحة كان من الممكن بها انقاذهم،

وهو ما كان ملزماً بفعله بموجب واجبات مركزه كمسؤول عن العدالة، وكذلك لمعرفة كيف جرت المحافظة على سلام الملك نحو رعاياه في مملكة انكلترا، وفي إيرلاندا، وغاسكوني وبواتو، وكذلك نحو الأجانب، وكذلك ماتعلق بما عمل بضرائب بدل الخدمة، وضرائب الأرض المفلوحة، والأعطيات، والهدايا، أو مجريات التعهدات العائدة إلى التاج، وكذلك ماتعلق بحصص الزواج التي تركت لعنايته من قبل الملك جون أثناء وقت موته، والأشياء الأخرى التي عهد بها إليه في أيام الملك الحالي.

وجواباً على هذا، أخبر هيوبرت الملك، بأن لديه تفويض من الملك أبيه، قد حرره بموجبه من تقديم أي حساب عن الأموال التي تسلمها أو التي سيتسلمها في خزينته، ولأنه كان موثقاً جداً من إخلاصه نحو الملك، لم يرغب هذا الملك بسماع أي حساب منه، وهنا قال بطرس أسقف وينكستر بأن ذلك التفويض قد فقد قوته عند وفاة الملك جون، ولذلك لم يعرف هو ولم يصل إليه أن الملك الحالي ملتزم بتراخيص أبيه، بل إنه يطالب بحساب عن القضايا المذكورة أعلاه، ولقد كانت تلك بعض القضايا الخفيفة التي طالب الملك بجواب عنها من قبل هيوبرت، وتبع ذلك عدة اتهامات جدية أخرى، فيها اتهم الملك هيوبرت بالخيانة ضد شخصه الملكي، وهي كانت كما يلي:

وكان أول اتهام جرى توجيهه من قبل الملك ضد هيوبرت هو أنه عندما أرسل رسائل، إلى دوق النمسا يطلب منه ابنة الأمير للزواج، أرسل هيوبرت في الوقت نفسه رسائل إلى الدوق ضد الملك وضد المملكة، وأقنع الدوق بالاقلاع والامتناع عن اعطاء ابنته للزواج، وكذلك عندما قاد جيشه إلى القارة، لاسترداد مناطقه الضائعة، أقنعه هيوبرت بالامتناع عن غزو نورماندي، أو المناطق الأخرى التابعة لسلطانه، وبناء عليه لقد أنفق أمواله من دون محصلة،

وكذلك فعل النبلاء الذين رافقوه، واتهمه الملك أيضاً بأنه كانت له صلات مع ابنة ملك الاسكوتلنديين، التي عهد الملك جون بشأن العناية بها إليه من أجل أن يتزوجها هو نفسه، وقد حصل منها على ولد غير شرعي، وبذلك ضاجع سيده نبيلة، واحتفظ بها لنفسه على أمل الحصول على مملكة اسكوتلندا، إذا معاشرت هي بعد وفاة أخيها، وكذلك قام هيوبرت فاختلنس بشكل سري من خزينته احدى الجواهر، التي تجعل حاملها غير مرئي في المعركة، وقد بعث بها بشكل خياني إلى عدوه للويلين الزعيم الويلزي، وأنه بسبب رسالة أرسلت من قبله إلى اللويلين، جرى شتى النبيل وليم دي براوس مثل لص، وقد اقترح خصوم هيوبرت المذكور جميع هذه التهم، سواء أكانت صحيحة أو مزيفة للايذاء، اقترحوها إلى الملك، الذي طلب بكل حماس الحصول على ترصية من هيوبرت المذكور، وفقاً لقرار محكمته، وفي هذه الضائقة طلب مسؤول العدالة منحه فرصة للتفكير حول هذه القضايا، لأنه لم تكن أمامه وسيلة أخرى، وأعلن أن الاتهامات كانت ثقيلة، ومن الصعب الاجابة عليها، أي التهم التي عملها الملك ضده، وبناء عليه، حصل بعد صعوبة بالغة على فرصة حتى عيد تمجيد الصليب المقدس، وغادر هيوبرت لندن، وذهب وهو مرعوب كثيراً إلى دير ميرتون Merton وهكذا فإن هيوبرت هذا الذي أثار من قبل حسد جميع نبلاء انكلترا ضده، بسبب تقدير الملك له، ولعنايته بالمملكة، هذا هو أصبح الآن من دون أصدقاء، ومهجوراً من قبل الملك، ويات وحيداً ومضطرباً، وكان لوقا رئيس أساقفة دبلن الرجل الوحيد الذي تكلم لصالحه عند الملك، وقد فعل ذلك وهو يبكي وقدم توسلات كثيرة، لكن جرائم المسؤول عن العدالة كانت كبيرة جداً، ولذلك لم يمنح الموافقة على طلبه.

بعض الاتهامات الكبيرة التي عملت ضدّ المسؤول عن العدالة

عندما رأى الناس أن تقدير الملك الذي كان يمنحه فيما مضى لهيوبرت، قد تغير إلى كراهية شديدة، نهض كثير من أعدائه ضده، واتهموه باقتراف أعداد هائلة من الجرائم، فقد اتهمه بعضهم بأنه تسبب بموت نبيلين هما: وليم إيرل سالسبري، ووليم مارشال إيرل بيمبروك بالسّم، وأنه قتل فالكاسيوس ورتشارد رئيس أساقفة كانتربري بالوسيلة الشريرة نفسها، وتقدم سكان لندن بشكوى إلى الملك ضد هيوبرت المذكور، بأنه شنق ابن مدينتهم قسطنطين بشكل غير عادل ومن دون محاكمة، وطالبوا من أجل هذه الجريمة بانصافهم وتقديم العدالة إليهم، وبناء عليه أصدر الملك اعلاناً في جميع أرجاء لندن، دعا فيه جميع الذين لديهم أية شكاوى ضد هيوبرت، من أجل أي أذى مهما كان قد صدر عنه، إذا كانوا يطالبون بالانصاف والعدالة من أجله، وعندما سمع هيوبرت بهذا، هرب مذعوراً إلى الكنيسة في ميرتون، حيث أخفى نفسه بين الكهنة.

وفي خريف العام نفسه جرى انتخاب المعلم جون، الذي لقبه لى بلند Blund الذي كان رجل دين، وتلميذ لاهوت في اكسفورد، إلى رئاسة أساقفة كانتربري، وبعدهما جرى قبوله من قبل الملك، أخذ الطريق مع بعض الرهبان إلى روما، للحصول على تثبيت انتخابه من قبل الكرسي الرسولي.

المنحة التي أعطيت إلى الملك وتشمل جزئاً من أربعين

من الممتلكات، إلخ

وفي الفصل نفسه، في حوالي أيام تمجيد الصليب المقدس، اجتمع الأساقفة ورجال الدين الآخرين من أصحاب الكنائس في المملكة، في مؤتمر أمام الملك في لامبث، عندما عملت منحة إلى الملك لوفاء الديون

التي عليه لكونت بريتاني، وكان مقدار هذه المنحة جزئاً من أربعين من جميع الممتلكات المتحركة، من الأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين والعلمانيين، وفقاً لما كان لديهم عندما جرى جمع القمح في الخريف، في هذه السنة السادسة عشرة من حكمه، أما بالنسبة لهيويرت دي بورغ، الذي عيّن له الملك وقتاً محدداً للظهور من أجل الاجابة على التهم المذكورة أعلاه، والمطالب التي صدرت ضده، خاف من غضب الملك، ولم يتجرأ على الظهور، لأنه قد ألح إليه بأن الملك عازم على إدانته، والحكم عليه بموت مهين، ولذلك هرب إلى الكنيسة في ميرتون، حتى تتوفر لأموره فرصة تبدو أكثر مواءمة، وأخيراً أرسل الملك رسالة إليه للقدوم إلى محكمة بلاطه، ليجيب على التهم المثارة ضده، لكنه أخبر الملك، بوساطة رسوله ومن خلاله، أنه خوفاً منه من غضبه، قد التجأ إلى الكنيسة، التي هي الملجأ الأخير والملاذ لمن يعاني من الأذى، وأنه لن يغادر حتى يعلم أن مشاعر الملك نحوه قد تحولت نحو الأحسن، وغضب الملك تجاه هذا كثيراً، ومع أن الوقت كان مساءً، أرسل أوامر إلى صاحب الحركة في لندن، ليأخذ معه جميع سكان المدينة القادرين على حمل السلاح لمهاجمة ميرتون، وأن يجلبوا هيوبرت إلى أمامه ميتاً أو حياً، وضرب صاحب الحركة عند ذلك الناقوس العام، وأمر سكان المدينة بالاجتماع، وقرأ عليهم رسالة الملك، وأمرهم أن يطيروا إلى السلاح لتنفيذ أوامر الملك، في صباح اليوم التالي الباكر، وفرح سكان المدينة، عندما فهموا مقاصد الرسالة، لأنهم كانوا يشعرون ببغض مميت نحو هيوبرت، وبناء عليه غادروا المدينة قبل صباح اليوم التالي، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألف رجل، وزحفوا على شكل أرتال نحو ميرتون في سبيل تنفيذ أوامر الملك، وأثناء هذا، اقترح على الملك من قبل ايرل شيلستر، أنه إذا ماثار مثل هذا الصراع بين السكان الحمقى وغير العقلانيين، لن تتوفر هناك فرصة، ما ان بدأ ذلك، إذا ما أراد تهدئة الاضطراب، ولذلك غير الملك رأيه، وبعث

بأوامر إلى صاحب الحركة، أن يعيد القوات التي أرسلها على الفور، وعلى هذا أعاد سكان المدينة في حالة دهشة، دون أن يكملوا تحقيق أهدافهم.

كيف أخرج هيوبرت من الكنيسة بالقوة وألقي به في البرج

وبعد هذه الحوادث، حصل رئيس أساقفة دبلن، بعد كثير من الالتماسات، لهيوبرت على مهلة حتى ثمانية عيّد الغطاس، حتى يمتلك مايكفي من الوقت ليفكر حول المطالب المذكورة أعلاه، التي كانت ذات طبيعة مستعجلة جداً، ويمكنه وقتها أن يقدم جواباً معقولاً، مع ترضيات موائمة إلى الملك، وبعد تسلم هيوبرت كفالة تأمين له كما اعتقد، وذلك بوساطة رسائل مصدقة من الملك، ركب الطريق إلى كنيسة القديس إدموند، حيث كانت زوجته مقيمة، ومن هناك عبر خلال اسكس، ثم استقر في بيت أسقف نورويك، في بلدة كانت تحت سلطان الأسقف المذكور، ولقد أغضب هذا الملك كثيراً، الذي كان يخشى أنه إذا ما نجا هيوبرت منه سوف يكون سبباً لإثارة هيجان كبير في المملكة، ولذلك أسف للمهلة التي منحه إياها، وهنا بعث الملك الفارس غودفري دي كروكمب Kraucumbe خلفه مع ثلاثمائة جندي، وأمره، تحت طائلة عقوبة الشنق، أن يعيد هيوبرت معتقلاً، وأن يسجنه في برج لندن، وزحفت هذه الفئة وقتها بكل سرعة، ووجدت هيوبرت في كنيسة قرب مقر إقامته، يحمل صليب ربنا في يد، وجسد المسيح في اليد الأخرى، لأنه كان قد أُنذر بوصول هؤلاء الذين يطلبون حياته، فنهض وقتها من فراشه حيث كان نائماً، وهرب عارياً إلى الكنيسة، ودخل غودفري المتقدم الذكر إلى البيعة مع أتباعه المسلحين، وأمره باسم الملك أن يغادر البيعة، وأن يأتي معه إلى لندن ليتحدث مع الملك، وأجابه هيوبرت بأنه لن يغادر البيعة بأية حال من الأحوال، وبناء على ذلك قام غيوفري وصحبه بانتزاع الصليب وجسد مولانا من

يديه، وبعدهما أوثقوه، وضعوه على ظهر حصان، واقتادوه إلى برج لندن، حيث وضعوه في سجن مضيق عليه، وبعد الفراغ من هذا كله، أخبروا الملك الذي كان ينتظرهم بقلق، وقد أعلموه بوصولهم، وبالذي فعلوه، وبناء على ذلك عاد راضياً إلى فراشه.

كيف أعيد هيوبرت إلى البيعة

وفي صباح اليوم التالي باكراً، عندما سمع روجر أسقف لندن، بأن هيوبرت قد أخرج بالقوة من البيعة، بادر مسرعاً إلى الملك، وبجراحة لامة لقيامه بخرق حرمة الكنيسة، وأخبره أنه مالم يطلق سراح هيوبرت، ويعيده إلى البيعة، التي أخرج منها بالقوة، سوف يتولى الحرمان كنسياً جميع مقترفي هذه الفعلة من العنف، ثم قام الملك، وهو مرغم، ومع أنه كان يعرف أن هيوبرت كان مجرمًا، فأعاده في السابع والعشرين من أيلول، إلى البيعة التي أخرج منها بالقوة من قبل الجنود، وأعطى بعد هذا أوامر إلى عمدتي: هيرفورد، واسكس، تحت طائلة عقوبة الموت لهما شخصياً مع جميع سكان الكونتيتين، أن يقوموا بتطويق البيعة، ومراقبة هيوبرت حتى لا يهرب، أو يتلقى إمدادات من أي واحد، ومضى عندها العمدتان لتنفيذ أوامرها التي تلقياها من الملك، وشرعا بمحاصرة البيعة ومعها بيت الأسقف، الذي كان قريباً، وقررا متابعة الحراسة لمدة اسبوعين، وتحمل هيوبرت على كل حال هذه المضايقة، براحة نفس — كما قيل — وعهد بقضيته إلى الرب، وتابع باستمرار يسأل الرحمة اللاهوتية أن تحميه من كل خطر، لأنه شخصياً اهتم ذاتياً بشكل دائم بكرامة الملك وسلامته فوق كل شيء، وأولى الملك — على كل حال — اهتماماً قليلاً لتخليه عن شخص خدمه بغيرة كبيرة، وقد جعل شغله الشاغل والوحيد تلبية رغباته، وأصدر الملك حظراً عاماً إلى الجميع أن لا يتكلموا إليه لصالح هيوبرت، أو أن يذكروه أو أن يشيروا إليه بحضوره، والتمس لوقا رئيس أساقفة دبلن، الذي كان صديقه الوحيد،

ورجا الملك بشكل متواصل وهو يبكي، أن يجبره على الأقل عما كان ينويه، فيما يتعلق بهيوبرت، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجابه، بأن هناك عدة خيارات أمامه يمكنه أن يختار واحداً منها، وهذه الخيارات هي:

إما أن يغادر انكلترا بشكل دائم، أو أن يدخل سجناً أبدياً، بعدما يعلن عن نفسه أمام الملاء أنه خائن، أو أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، وعلى هذا رد هيوبرت بأنه لن يقبل بأي من هذه الخيارات، لأنه يشك بنوايا الملك، ثم إنه لا يتذكر أنه عمل قط عملاً يستحق هذا النكران، ومع ذلك هو على استعداد لمغادرة المملكة لبعض الوقت، إرضاء للملك، لكنه لن يتخلى عنها ويغادرها بشكل دائم.

وأمضى بعد هذا عدة أيام وليالي محصوراً في هذه البيعة، مع اثنين من الخدم، اللذان زوداه بالمؤن حتى منعوا —بناء على أوامر الملك— من جميع أنواع الأطعمة، وهما شخصياً طردا من البيعة، واعتقد هيوبرت وهو في هذه الشدة، أن من العار أن يموت جوعاً، فغادر البيعة عن طواعية، وسلم نفسه إلى العمدين، اللذان كانا يراقبانه، ذلك أنه قال بأنه سوف بالحري يؤثر الوثوق برحمة الملك على أن يموت من الجوع، وعند ذلك تدبر العمدتان اعتقاله بشكل مضمون، ثم وضعاه على ظهر حصان، وأخذاه إلى لندن، حيث أودع السجن بشكل محكم، وربط بالأغلال، في برج المدينة.

جمع الجزء من أربعين من الممتلكات الممنوح إلى انكلترا

«من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى بطرس دي ثانيو Thaneo ووليم كولوورث Culworth وآدم فتز— وليم، الذين يتولون جمع الجزء من أربعين، التحيات، ليكن معلوماً لديكم أن رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين،

الذين بين أيديهم أراضي ليست ملكاً لكنائسهم، وأن الأيرلات، والبارونات، والفرسان، والرجال الأحرار، والمزارعين في مملكتنا، قد عملوا منحة لنا، لمساعدتنا، ومقدارها جزئاً من أربعين من جميع ممتلكاتهم المتحركة، حسبما كانت بين أيديهم في اليوم التالي لعيد القديس متى، في السنة السادسة عشرة من حكمنا، وهذه الممتلكات هي:

القمح، والمحار، والأغنام، والعجول، والخنازير، وخيول التحميل، وخيول جر العربات، والأشياء الأخرى المستخدمة في عزبهم، باستثناء الممتلكات التي بين أيدي رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين الذين تقدم ذكرهم، لصالح الأسقفيات والكنائس الوقفية وكذلك الأوقاف، والأراضي العائدة للأوقاف، أو لها علاقة بالأوقاف، أو الكنائس الأسقفية، وسوف تقدم بشكل عام من قبل رعايانا التابعين كما تقدم بشكل عام، وذلك بأن يتم تقدير الجزء من أربعين وجمعه كما يلي:

يجري اختيار أربعة أشخاص من أحسن الرجال في كل بلدة وأكثرهم براعة مع رؤساء الكنيسة في كل بلدة، الذين بموجب قسم منهم سوف يجري تقدير الجزء من أربعين من جميع الممتلكات المتحركة المتقدم ذكرها، وسوف يجري فرضه ضريبة على كل واحد، بحضور الفرسان المقومين المتدينين لهذه الغاية، وبعد هذا، بناء على يمين رجلين تابعين اقطاعيين من البلدة نفسها، سوف يجري تقدير الجزء من الأربعين وفرضه ضريبة على الممتلكات المتحركة العائدة للرجال الأربعة المتقدم ذكرهم مع رؤساء الكنائس، وينبغي أن يدون بشكل دقيق وواضح ويدرج اسم البارونية العائدة إليها البلدة جزئياً أو كلياً، وبعد تسليم الجزء من أربعين، يتوجب كتابة ذلك بلائحة فيها جميع الخصوصيات المتعلقة بكل قرية، وبكل كونتيه، على أن ترسل تلك اللائحة إلى قهرمان كل بارونية، أو إلى وكيل كل قهرمان، أو إلى نائب الامتيازية، حيثما

هناك أية امتيازية، أي حيث يمكن أن يكون بارون الامتيازية أو صاحبها لديه السلطة لجمع الجزء من أربعين المتقدم ذكره واستيفائه، لكن إذا لم يرغب بذلك، أو كان غير قادر على فعل ذلك، سوف يقوم العمدة بالاستيفاء المذكور، وبذلك لن يتسلموا شيئاً منه، بل ينبغي تسليم الجزء من أربعين كله إلى الفرسان المقومين المتقدم ذكرهم، في أوسع بلدة وأكثرها أماناً في كل كونتية، وسيكون هناك من كل بلدة حساب رئيسي متوفر بين قهرمان البارون، أو وكيله، أو بين قهرمانات صاحب الامتيازية، وبين المقومين المتقدم ذكرهم، وسوف يودع المقومون المال في بعض الأماكن الآمنة في البلدة نفسها، وأن يضعوا أختامهم وأقفالهم، ومفاتيحهم على المال المذكور، ومثل هذا سوف يضع عمد المناطق أختامهم، وأقفالهم، ومفاتيحهم على هذا المال أيضاً، وفور الفراغ من تقدير الجزء من أربعين، على المقومين إرسال قوائمهم عن جميع الدائرة إلى الخزانة، ووفق الطريقة نفسها ما ان يكون المال المذكور قد جمع، حتى يتوجب عليهم إرسال قوائم إيصالاتهم إلى الخزانة، وينبغي حفظ المال المذكور في المكان الذي أودع فيه، حتى يجري جلبه، بناء على أوامرنا، إلى المعبد الجديد في لندن، ومامن شيء سوف يؤخذ من أي انسان على سبيل الجزء من أربعين، إذا لم يكن يمتلك ممتلكات متحركة تساوي بقيمتها أربعين بنساً على الأقل، وقد عيناكم لتقدير الجزء من أربعين في كونتية هارتفورد، وقد أمرنا عمدتنا في هارتفورد بأن يجمع كل القرويين في كونتية، وذلك بناء على أمرنا، في أن يمثلوا أمامكم في موعد محدد، ومكان معين، أنت سوف تتولى تعيينه له ليفعل ذلك، وأيضاً ليساعدك ويطيعك في جميع المسائل المتعلقة بالعمل المذكور. وداعاً».

موت رالف إيرل أوف شيبستر

في الثامن والعشرين من تشرين أول، من العام نفسه، مات رالف

ايرل أوف شيبستر ولنكولن في وولنغفورد Wallingford وقد نقل جسده إلى شيبستر للدفن، وقد خلفه بالايرلية ابن أخته جون بن داوود، أخو وليم ملك الاسكوتلنديين، واستحوذ ابن أخت له آخر من أخت ثانية على ايرلية لنكولن، وقد كان من قبل باروناً، وصار الآن ايرلاً، وكان ايرل آرونديل ابن أخت آخر له، وقد صار ممتلكاً لخمسة امتيازية.

وفي هذه الآونة، قبل عيد القديس مارتن [١١ - تشرين ثاني]، أومي إلى الملك أن هيوبرت مسؤول العدالة المعزول لديه مبلغ كبير من المال في الهيكل الجديد في لندن، مودع بعناية الداوية هناك، وبناء عليه استدعى مقدم الداوية للاجتماع به، وسأله بشكل واضح عما إذا كانت القضية صحيحة، ولم يتجرأ هذا على إخفاء الحقيقة وانكارها أمام الملك، فاعترف له بأن مبلغاً من المال قد أودع لديه ولدى الرهبان، لكنهم لا يعرفون مقدارها، ولا كميته، وطلب الملك مع التهديد المال من الرهبان، معلناً بأنه قد سرق من قبل هيوبرت من الخزينة، ورد الداوية عليه، أنهم لن يسلموا إلى أي انسان المال الذي عهد به إليهم بثقة، من دون إذن من الشخص الذي أودع المال في الهيكل حفاظاً عليه، وبما أن ذلك المال كان معهوداً به إلى الكنيسة، لم ير الملك أنه عمل عقلائي اللجوء إلى العنف، وبناء عليه أرسل خازن بلاطه مع مسؤولي العدالة في خزنته إلى هيوبرت، الذي كان طوال الوقت مغلولاً في برج لندن، يأمره بتعيين المال المذكور إلى الملك، وعندما أخبر الرسل المتقدم ذكرهم هيوبرت بهذه الرسالة نيابة عن الملك، أجاب على الفور، أنه على استعداد أن يضع نفسه وكل ما يملكه تحت إرادة الملك، وبناء عليه أعطى التعليقات إلى فرسان الداوية، أن يسلموا جميع المفاتيح التي هي باسمه إلى الملك، حيث يمكنه أن يفعل ما يختاره بالممتلكات المودعة هناك، وجرى تنفيذ هذا، وأمر الملك بتعداد المال بشكل صحيح،

ووضعه في خزينته، وبكتابة لائحة بالمتلكات التي عثر عليها هناك، حتى تؤخذ وتعرض عليه، ووجد محاسبو الملك وخازنه هناك ثمانية آلاف باوند من الفضة، من أفضل النقود، ومائة وأربعين وعاء من الفضة وهي محلاة بالفضة والذهب، مع كمية كبيرة جداً من الجواهر، فاقت قيمتهم — كما قيل — جميع المتلكات التي وجدت هناك، وعندما انتشر خبر هذه الحادثة وعمّ في الخارج، ذهب مضطهدو هيوبرت الذين لم يتعبوا، وقدموا شكاوى ضده، وقالوا اماواينه الآن قد أدين بالسرقة والغش، فهو يستحق أن يعاني موتاً مهيناً، وعلى هذا ردّ الملك قائلاً:

«لقد خدم هيوبرت — كما أخبرت — منذ طفولته باخلاص، عمي الملك رتشارد، ثم أبي الملك جون، ومع أنه تصرف بشكل سيء نحوي، هو سوف لن يعاني بوسائطي من موت غير عادل، لأنني سوف أعدّ بذلك أحقاً، وملكاً لينا، فضلاً عن نعتي بأنني ملك متوحش وطاغية»، وبهذه الكلمات منح إلى هيوبرت جميع الأراضي التي كانت بين يديه من قبل كهدية من أبيه، أو عن طريق الشراء، حتى يتمكن من تزويد نفسه ودعمها مع أتباعه بالحاجات الضرورية من ذلك الوقت فصاعداً، وعلى الفور أصبح بعد هذا الايرل رتشارد، أخو الملك، ووليم ايرل وارني، ورتشارد ايرل مارشال، ووليم ايرل فيرير Ferers كـفـلاء لهيوبرت، وقد أرسل إلى قلعة ديفزي Devites تحت عهدة الفرسان الأربعة المتقدم ذكرهم، حيث بقي سجيناً تحت الكفالة.

وفي العام نفسه، في اليوم التالي لعيد القديس مارتن سمعت أصوات رعد مخيفة، استمرت متقطعة لمدة خمس عشرة يوماً، الأمر الذي أربع كثيراً من الناس، ولاسيما سكان لندن، الذين كانوا الآن معتادين تماماً عليهم، لأنهم كانوا كلما وقعوا في انكلترا، كانوا يسمعون في لندن، وقد تبع هذا خلاف محزن في المملكة بين الملك وبين نبلائه، كما سوف تظهر الرواية التالية:

الزيارة التفقدية لرجال الدين من كل طائفة في جميع أرجاء العالم

وفي هذا العام أيضاً عيّن البابا غريغوري مفتشين لزيارة رجال الدين في جميع أرجاء العالم المسيحي، بموجب التفويض التالي: «من الأسقف غريغوري إلى إخوانه الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتبري، تمنيات الصحة، والمباركات الرسولية، ذهب الشيطان من أمام الحضرة الربانية، واضعاً يده في أعمال الوقاحة، ووثاقاً ببراغته، وآماله للتوريط في الشرور الذين انتخبوا في ميراث الرب، وأعدّ مصائد أعظم ضد أولئك الذين أمل أن يجد فيهم الفساد الأعمق، ولهذا وقع تحت ملاحظتكم أنه غالباً ما وقعت كنائس مناطق كانتبري بشكل مرعب ونأت في قضايا روحية وديوية، وبسبب العقول الشريرة وإهمال الذين استخدموا فيهم، لم نختر الماضي مدة أطول والمرور بأغلاطهم صامتين، خشية اننا إذا سمحنا لهم بالماضي غير مقومين أن نبدو وكأننا أخذناهم على عهدتنا، ولذلك عيّننا زواراً خاصين تفقديين، ومصلحين ومقومين، وكذلك على رأس بعض الأطراف الأخرى، لزيارة تفقدية لتلك الكنائس القائمة في تلك المنطقة، والمعروف أنها عائدة مباشرة إلى الكنيسة الرومانية، وقد أعطيناهم سلطة كاملة في زيارتهم التفقدية لتلك الكنائس لتقوم وتصلح المخالفات، التي هم سيكونوا متأكدين أنها تحتاج التقويم والاصلاح، ولكن دون أن تحط من قدر أو تفسد المؤسسات، والاصلاحات التي عملت بشكل صحيح في الكنائس الاقليمية، ونحن — على كل حال — نحفظ لأنفسنا، إلى أبعد الحدود، بالعناية القصوى بكل ماباشرناه، ومع ذلك إنه واجبكم، أنتم الذين دعيتم للمشاركة بما نعنتي به، أن تكونوا معتنين ومتيقظين نحو الرعية التي أسندت الرعاية الخاصة بها إليكم، حتى لا تهلك الشاة المريضة، وإنه بناء على ذلك إنها نصيحتنا، لابل أمرنا الدقيق إلى أخوتكم، فرداً فرداً ولكم جميعاً، أن تجعلوا شغلكم، في كل من المجال الشخصي، وبوساطة رجال الدين الموجهين من أجل مقاصد

الزيارات التفقدية، أن تقوموا بزيارة تفقدية لمساكن الرهبان، والراهبات، والكهنة النظاميين والعلمانيين، الخاضعين لكم في كل من المدن والأسقفيات، وأن تقوموا بوساطة سلطاتنا، وكذلك بوساطة سلطاتكم بهذا الاصلاح بشكل عام والتقويم متناولين رؤوسهم والأطراف الأخرى، وذلك حيثما ترون أن مثل هذا الاصلاح والتقويم ضروري، وضعوا جانباً كل إثرة وكل رجاء، وتمسكوا بالأنظمة المتعلقة بالأشخاص الدينيين هناك، وفقاً لقرارات المجامع المسكونية، وأوقفوا أعمال التذمر والأقويل بوساطة العقوبات الكنسية، وأجلوا جميع مرافعات الاستئنافات، وبتنفيذكم هكذا لتوجيهاتنا، يمكنكم في يوم الحساب العسير والعذاب الشديد، الذي سيجازى فيه كل انسان وفقاً لأعماله، أن لن تطالبوا بدمائهم على أيديكم، وأن لانكون محتاجين لاستخدام عصا العقوبات الرسولية. صدر في سبوليتو Spoleto في هذا اليوم التاسع من حزيران، في السنة السادسة من حبريتنا».

الزيارات التفقدية التي سوف تعمل في الكنائس المستثناة

وبالنسبة إلى الكنائس الأخرى ورجال الدين، الذين كانوا تحت السلطة المباشرة لكنيسة روما، هو لم يعين أساقفة كزوار تفقدين، بل رعاة ديرة، وكان هؤلاء بشكل خاص من طائفة السسترشيان، والبرامونستر تنشيان Praemonstratensians الذين كانوا رجالاً أشداء وغير قابلين للانحراف، ويقومون بواجبات زيارتهم التفقدية بعنف ومن دون رحمة، وهم يتجاوزون حدود واجباتهم في عدة أديرة، حتى أن أعداداً قد أرغموا على اللجوء إلى الشكوى ضدهم، والذين فعلوا ذلك، قد ذهبوا إلى روما، ومع كثير من النفقات والجهد قد حصلوا على زائرين تفقدين آخرين، وباختصار، عملت هذه الزيارات التفقدية ونفذت في جميع أنحاء العالم لافساد وليس لإصلاح عدداً من الطوائف، وبشكل خاص بالنسبة للذين يتبعون نظام القديس بندكت في

مختلف أرجاء العالم، ونتيجة لهذه الزيارات التفقدية فإن هذه الطوائف هي الآن على خلاف، إلى حد أنه يصعب أن تجد بين جميع هذه الديرية والبيوت الدينية ديران أو بيتان متفقان في نظاميهما حول الحياة، وكان هناك راعي دير في مونتيلو Montebello قد ساورته الشكوك حول ما ينبغي عليه الاستمرار به في هذه الزيارات التفقدية، فسأل نصيحة البابا حول بعض النقاط المشكوك فيها، وعلى ذلك تلقى الجواب التالي:

كيف استشير البابا حول الزيارات التفقدية المتقدم ذكرها

«إن هذه الواجبات التي رسمت بشكل عاقل من أجل كرامة الديانة، وسلامة الجماعات الدينية، ينبغي تقويتها بالحماية الرسولية، وأن تنفذ بتقوى، وأن تراعى بيقظة، وبناء عليه فإن أخانا المحبوب جداً، راعي دير مونتيلو، قد عرض علينا بعض النقاط التي بدت بالنسبة لكرامتنا ولحفظنا نقاطاً جديدة بالثناء من أجل تقويم عدداً من المخالفات والجرائم التي وجدت في بعض الديرية، وقد طلبنا فحص القضية ووفرننا ذلك، وأن يتم تقويمها، وأمرناكم بعدم انتهاك الأنظمة، التي من أجل السلامة قد ختمناها بأختام إخواننا المحترمين في أوستيا Ostia وتوسكولوم Tusculum وإنها ارادتنا، وبوساطة السلطات الرسولية نأمركم، بأن تجمعوا الزوار التفقديين في جلسة كهنوتية عامة، ورؤساء الرهبان حيث لا يوجد رعاة ديرة بالذات، باستثناء وكذلك بدون استثناء الذين لا يعقدون بالعادة هيئات كهنوتية، وسوف يتأسون على هذا الاجتماع الكهنوتي، واضعين جانباً كل معوق قانوني، والذين سوف يرفضون أو يهملون الحضور سوف يرغمون على فعل ذلك بوساطة العقوبات الكنسية، ولن يتوقفوا حتى يجعلونهم يقومون بتكفير صحيح، مثلما سيفرضون ذلك عليهم بشكل صحيح، وبوساطة العقوبات نفسها سوف يجعلون قرارات الهيئة الكهنوتية نفسها تحظى بالتنفيذ بكل دقة، وهم أنفسهم وكذلك الزوار المتفقدين وبعض الآخرين، سوف يقدمون

في يوم الحساب الأخير تقريراً عن عملهم إلى الرب، الذي لديه كل شيء واضح ومرئي، وأن يجعلوا اهتمامهم أثناء الزيارات التفقدية للديرة منصباً مع كل عناية، وحرصهم على اصلاح وتقويم الانتهاكات للطوائف المتعددة، وعلاوة على ذلك عندما سيقوم الزوار المتفقدون وفقاً لقرارات المجمع العام— بتنفيذ واجباتهم، في الاجتماع الكهنوتي العام لرعاة الدير، المتعلقة بالزيارات التفقدية، عليهم أن يتفحصوا بكل دقة أوضاع الدير، وكيفية المحافظة على الأنظمة، وسوف يتولون القيام بأعمال التقويم والاصلاح حسبما يبدو إليهم ضرورياً، في كل من القضايا الروحية والدينية، وعلى هذا سوف يجعلون الرهبان المذنبين يتلقون العقوبة على يدي راعي المكان، وأن تفرض عليهم عقوبة كاملة، وفقاً لأحكام القديس بندكت، ولأحكام المؤسسات الرسولية، وليس وفقاً للعادة الشريفة التي تطورت إلى قانون في بعض الكنائس، ويتوجب على الزوار المتفقدون أنفسهم، أن يقوموا بوساطة العقوبات النظامية، ومن دون تقدير لأي أشخاص، عوضاً عنا، بانزال العقوبة بأي راهب يجدونه متلبساً بالتمرد، وأن لا يوفروا أحداً بسبب صلاته، أو سلطته، أو أصدقائه، بل عليهم طرد الشاة المريضة من القطيع حتى لاتصيب الشياه الصحيحة، وإذا ما اكتشف بأن رعاة الدير كانوا مهملين في تقويم أنفسهم، ينبغي وفقاً لسلطات الزوار المتفقدين، أن يعلن عنهم، ويجري اعتقالهم، ومن ثم انزال العقوبة بهم في اجتماع هيئة الكهنوت، وبذلك تكون عقوبتهم مثلاً للآخرين، وإذا ما جرى اكتشاف أي راعي دير— إذا لم يكن مستثنى— من قبل الزوار المتفقدين أنه مهمل ومتعاس، عليهم توبيخه والشكوى ضده إلى أسقف المكان، الذي عليه أن يعين له وصياً وشخصاً حكيماً ليتعاون معه حتى الاجتماع التالي لهيئة الكهنوت، ولكن إذا ماتين أنه مذنب بالتخريب، أو يستحق العزل لأي سبب كان، يتوجب إبعاده— بعد اخباره بالقضية من قبل الزائر المتفقد— وعزله من قبل الأسقفية، ومن إدارة ووظيفة الرعية،

ومن الدير من دون ضجة أو محاكمة، وأن يجري في الوقت نفسه تعيين مدير مناسب ليتولى المسؤوليات الدنيوية للدير، وذلك حتى يجري تزويد هذا الدير براعي جديد، ولكن إذا ماصدف لسبب ما ورفض الأسقف أو أهمل القيام بهذا الواجب، سوف يقوم الزوار المتفقدون أنفسهم، أو الذين يتأسون الهيئة العامة للكهنة، بتزويد الكرسي الرسولي، من دون تأخير بخطيئة ذلك الأسقف، وإن أوامرنا تقضي بوجوب مراعاة هذه الأحكام باحترام، بالنسبة لرعاة الدير المعفيين، محتفظين للكرسي الرسولي بشؤون عزلهم، وفي أي وقت أعتقد أن أي راعي دير يستحق العزل أو التعليق عن ممارسة وظيفته، ينبغي تعيين مدير مناسب للدير، إما من قبل الزوار التفقدين، أو من قبل الذين يتأسون هيئة الكهنة، وإذا لوحظ أن آثام هؤلاء الأشخاص وأشياء أخرى جديرة بالايصال إلى هيئة الكهنة، على رئيس الهيئة الاتصال بنا بوساطة رسل موثوقين وحكماء، سوف يجري تحمل نفقاتهم بوساطة مساهمة عامة لرعاة الدير، كل واحد منهم حسب امكاناته، وعلى الزوار التفقدين الذين يقدمون فيما بعد أن يبحثوا بكل دقة وأن يتفحصوا اجراءات الزوار التفقدين المتقدمين، وأن يوصلوا أخبار أية ذنوب أو اهمالات صدرت عنهم إلى اجتماع هيئة الكهنة التالي، من أجل أن ينالوا عقوبتهم وفقاً لذنوبهم، وهذه الأشياء المتعلقة بالزوار التفقدين فيها كفاية.

وفي هذا العام اتهم روجر أسقف لندن، بين الآخرين، بالتحريض على نهب محاصيل الكنيسة الرومانية، ولذلك ذهب إلى روما للبرهنة على براءته.

كيف صرف الملك بعضاً من وزرائه من بلاطه

عام ١٢٣٣م، فيه، وهو العام السابع عشر لحكم الملك هنري، عقد هذا الملك بلاطه أيام عيد الميلاد في ووركستر، حيث قام — كما قيل —

بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر بصرف جميع الموظفين المحليين في بلاطه من وظائفهم، وعيّن في أماكنهم أجانبا من بواتو، كما أنه صرف وليم دي رودون Rodune وكان فارساً قام بواجبات رتشارد المارشال الأكبر في بلاطه، وبناء على نصيحة الشخص نفسه صرف أيضاً وولتر أسقف كارايل من وظيفته كخازن، ثم أخذ منه مائة باوند من الفضة، وانتزع أيضاً منه بالقوة بعض الودائع والوظائف التي منحه الملك إياها بصك منه مدى الحياة.

وصرف بشكل مفاجيء جميع مستشاريه السالفين، وأساقفته، وايرلاته، وباروناته، والنبلاء الآخرين، ولم يضع ثقته بأحد سوى أسقف وينكستر المتقدم ذكره، وابنه بطرس دي ريفول Rivaulx وبعد هذا طرد جميع قادة القلاع في جميع أرجاء انكلترا، ووضع مكانهم قادة قلاع تحت اشراف بطرس المذكور، ولكي يحصل الأسقف على الخطوة الكاملة لدى الملك، ضم إلى نفسه ستيفن سيغريف Segrave وهو رجل مطواع، وروبرت باسلوي Passelewe الذي تولى حفظ خزينة الملك تحت اشراف بطرس دي ريفول، وقد حكم المملكة كلها بمساعدة هذين الرجلين ونصيحتهما، ثم دعا الملك رجالاً من بواتو وبريتاني، كانوا فقراء وشهين يسعون وراء الثروة، وقدم إليه حوالي ألفي فارس وجندي مزودين بالأسلحة والخيول، أدخلهم في خدمته، وجعلهم مسؤولين عن القلاع في مختلف أجزاء المملكة، وبذل هؤلاء غاية جهدهم لظلم الرعايا الانكليز الطبيعيين والنبلاء، فقد دعوهم باسم خونة، واتهموهم بالخيانة تجاه الملك، وصدق الملك، الذي كان رجلاً ساذجاً أكاذيبهم، وأسند إليهم المسؤولية عن جميع الكونتيات والبارونيات، وعن جميع الشباب من النبلاء من كل من النساء والرجال، الذين استدرجوا إلى زيجات قذرة ومدنسة، وعهد الملك إليهم أيضاً بأمر العناية بخزنته، مع إعادة فرض قوانين البلاد، وإدارة

العدالة، وباختصار لقد عهد بالقضاء إلى غير العادلين، وبالقوانين إلى الخارجين على القوانين، وبالحفاظ على السلام إلى مثيري الخصام، وبالعدالة إلى أولئك الذين هم أنفسهم امتلأوا بالأذى، وعندما قدم النبلاء شكواوى إلى الملك حول الظلم الذي تحملوه، تدخل الأسقف المذكور، ولم يكن هناك من يمنحهم العدل، وعمل بطرس المذكور اتهامات ضد بعض أساقفة المملكة الآخرين، ونصح الملك بتجنبهم على أنهم أعداء مكشوفين.

كيف احتج المارشال لدى الملك

عندما رأى الايرل رتشارد مارشال المملكة أعمال الأذى هذه وأمثالها التي ظلم بها الرفيع والوضيع سواء، وأن قوانين المملكة قد دمرت، أثير بسبب غيرته على قضية العدل، وذهب بجرأة بصحبة بعض النبلاء الآخرين إلى الملك، وقام على مسمع من عدد من الناس، بتوجيه الملامة له، وأنه نصح بشكل مضر بإدخال هؤلاء الأجانب من بواتو لظلم المملكة ورعاياه الطبيعيين ولإزالة الشرائع والامتيازات، ثم إنه بناء على ذلك توجه بتواضع بالرجاء إلى الملك أن يوقف على الفور هذه التجاوزات، التي نتيجة لها سوف يواجه التاج وتواجه المملكة خطراً عظيماً يقود إلى الدمار، وعلاوة على ذلك، أعلن أنه إذا مارفض تصحيح هذه القضية، سينسحب هو ونبلاء المملكة الآخرين من مجالسه مادام مقيماً للاتصالات بهؤلاء الأجانب، وعلى هذا رد رتشارد أسقف وينكستر بأن مولاه الملك، من المؤكد كان مسموحاً له أن يستدعي الأعداد التي يريدونها من الأجانب من أجل حماية مملكته والتاج، ويقدر ما يكون عدد هؤلاء كبيراً سوف يكون قادراً على اخضاع رعاياه المتشاخين والعصاة وانزاهم إلى طاعتهم الطبيعية، وعندما لم يستطع الايرل مارشال مع النبلاء الآخرين وكانوا غير قادرين على الحصول على جواب آخر، تركوا البلاط وهم في غاية الانزعاج، وقرروا بشكل

ثابت أحدهم مع الآخر القتال في سبيل هذه القضية، التي تتعلق بهم جميعاً حتى تغادر أرواحهم أجسادهم.

العواصف الرعدية

وفي العام نفسه، في الثالث والعشرين من آذار، سمعت أصوات رعد رهيبه، تبعها أمطار متواصلة طوال الصيف، دمرت المطارد، وأزالت البرك والطواحين في جميع أنحاء انكلترا تقريباً، وفي الأراضي المفلوحة وحقول الحصاد، وفي الأماكن الأخرى غير الاعتيادية في مختلف المناطق جرت هنا وهناك على شكل جداول، وشكلت بحيرات في وسط الغلة المحصودة، التي فيها —لدهشة كثيرين— شوهدت أسماك الأنهار، والطواحين التي كانت واقفة في أماكن متنوعة لم تعد مرئية كما كانت من قبل.

وفي العام نفسه، في الثامن من نيسان، وفي حوالي الساعة الأولى من النهار، ظهر في أحواز هيرفورد، ووروكستر أربع شمس زائفة حول الشمس الحقيقية بألوان مختلفة، وكان بعضها نصف دائري، وبعضها الآخر دائري، وشكلت هذه الشمس مشهداً رائعاً، وشوهدت من قبل أكثر من ألف شخص موثوقين، وقام بعضهم في ذكرى لهذه الظاهرة غير الطبيعية، ولكي لا تهرب هذه الظاهرة غير الاعتيادية من ذهن الانسان وذاكرته، فرسموا شمساً، ودوائر من مختلف الألوان على الكاغد، وتبع هذا في العام نفسه حرباً مرعبة، وسفكاً مخيفاً للدماء في هذه البلاد، وكان هناك اضطهاد عام في جميع أرجاء انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وفي حوالي الوقت نفسه، في شهر حزيران، شوهد ثعبانين ضخمين جدا من قبل السكان، على مقربة ساحل البحر، في الجزء الجنوبي من انكلترا، وكانا يتقاتلان في الهواء، وبعد صراع عنيف تغلب أحدهما على الآخر، وجعله يهرب، وطارده إلى قلب البحر، حيث ضاعا، ولم يشاهدا بعد ذلك.

إلغاء انتخاب رئيس أساقفة كانتبري

وفي تلك الآونة، كان قد جرى انتخاب المعلم جون، الملقب لى بلند رئيساً لأساقفة كانتبري، وقد أذيع في روما، أنه تسلم بعد انتخابه ألف مارك من الفضة بمثابة هدية من بطرس أسقف أوف وينكستر، إلى جانب ألف أخرى أقرضه الأسقف إياها لمساعدته على الحصول على ترقيته، هكذا تبرهن بشكل جلي أن صداقات الأسقف المذكور كانت مؤذية أكثر منها نافعة له، وبالإضافة إلى هذا، لقد روي بأن جون المذكور قد اعترف في روما، أنه مستحوذ على مرتبتين كنسيتين إليهما معهود العناية بالأرواح، وذلك على الرغم من قرارات المجمع العام، وبناء عليه استحق تهمة الوقاحة، لكن بما أن انتخاب ثلاثة أساقفة لكنيسة كانتبري، جرى إلغاؤه مؤخراً، فقد بقيت الكنيسة المذكورة مدة طويلة من دون رئيس لها، ولذلك أعطى البابا إذناً إلى الرهبان الذين قدموا مع رئيس الأساقفة المنتخب المرفوض باختيار المعلم ادموند، الذي كان كاهناً في كنيسة سالسبري ليكون أسقفاً مسؤولاً عن أرواحهم، من أجل عدم بقاء كرسي مطراني له مثل هذه الأهمية، مدة أطول من دون رئيس أساقفة، وأرسل له في الوقت نفسه الطيلسان، وقرر الرهبان — على كل حال — عدم قبوله أو قبول أي واحد آخر، إلا بموافقة عامة من جماعتهم كلها.

الخلاف الذي نشب بين الملك وبين نبلاء المملكة

وحقن طوال هذا الوقت بطرس أسقف وينكستر ورفاقه قلب الملك بالكراهية والبغضاء لرعاياه الانكليز، إلى حد أنه سعى بكل ما أوتي من قوة ومن وسائل إلى محقهم، واستدعى فرقاً من شعب بواتو حتى يملأوا انكلترا كلها، وكان حينها ذهب الملك، كنت تراه محاطاً بحشود من هؤلاء الأجانب، ومامن شيء صنع في انكلترا، إلا ماكان أسقف وينكستر وحشده من الأجانب قد قرروه، ثم أرسل الملك رسائل،

واستدعى جميع الايرلات والبارونات التابعين للمملكة للقدوم إلى مؤتمر في اكسفورد، يوم عيد القديس يوحنا، لكنهم رفضوا القدوم إلى الاجتماع، لأنهم خافوا من خيانة من هؤلاء الأجنب، وكذلك بسبب الغضب الذي شعروا به نحو الملك لأنه حشد هؤلاء الأجنب مراغمة للبارونات المذكورين، ولدى حمل رفضهم إلى الملك من قبل مراسلين خاصين، غدا غاضباً جداً، وأمر بإصدار قرار يمكنه فيه إرغامهم على حضور اجتماع بلاطه، ثم إنه تقرر وجوب دعوتهم ثلاث مرات، من أجل معرفة هل سيأتون أم لا، وفي هذا المؤتمر قام واحد من الرهبان من طائفة المبشرين، كان يقوم بالتبشير بكلمة الرب بحضور الملك، و بعض الأساقفة، قام بوضوح باخبار الملك بصوت مرتفع، بأنه لن يتمتع قط بسلام دائم، ما لم يقم بصرف بطرس أسقف وينكستر، و بطرس دي ريفول ابنه من ادارته ومن مجالسه، وأخبر كثيرون كانوا حضوراً الملك بالشيء نفسه، وبناء عليه أرسل رسالة إلى النبلاء الذين تقدم ذكرهم للقدوم إلى مؤتمر يعقد في ويستمنستر في ١١ - تموز، فوقتها سوف يتشاور معهم حول أي تقويم ينبغي عمله بموجب الحق، وكان النبلاء على كل حال قد سمعوا بأن أعداداً من هؤلاء اللصوص مزودين بالخيول والسلاح، تابعوا وصولهم من وقت إلى آخر بناء على دعوة الملك، ولدى عدم رؤيتهم أنه ليست هناك علامات تدل على الهدوء، رفضوا الحضور في اليوم المحدد، وطلبوا من الملك بوساطة رسل خاصين، أن يقوم على الفور بصرف بطرس أسقف وينكستر ومستشاريه النبلاء البواتيين، وإلا سوف يقومون بموافقة عامة بالاتحاد لطرده ولطرده المستشارين الأشرار من المملكة أيضاً، ومن ثم القيام بانتخاب ملك جديد.

كيف طرد الملك بعض نبلائه

أصيب الملك، وكذلك بلاطه كله بالانزعاج والغضب، وباتوا

خائفين جداً، من أن تكون غلطة الابن أكثر سوءاً من غلطة الأب، ذلك أن النبلاء قد قرروا خلعهم من العرش وطرده من المملكة، وبناء عليه نصح الأسقف بطرس المتقدم ذكره بالقيام بالحرب ضد نبلائه المتمردين، وأن يتنزع قلاعهم منهم، ومن ثم أن يعطيها إلى النبلاء البواتيين، الذين سوف يدافعون عن المملكة ضد هؤلاء الخونة، وكان أول من ناله غضب الملك غيلبرت باسيت Bassett وكان نبياً وقد حرمه من إحدى العزب، التي كان قد تسلمها كأعطية من الملك جون؛ وعندما طلب من الملك أن يعيد إليه امتيازاته، سماه الملك خائناً، وهدده أنه إذا لم يغادر بلاطه سوف يتعرض للشنق، كما أمر برتشارد سيوارد Siward وكان فارساً جريئاً، فأودع السجن، ثم أحضر إلى أمامه لأنه — كما قيل — قد تزوج من أخت غيلبرت المذكور، من دون إذنه، وبما أنه صار شاكاً بجميع النبلاء الآخرين وبالرجال ذوي المراتب في المملكة، طلب منهم تقديم رهائن، وأرسل رسائل إليهم بموجب مذكرات أن يسلموا إليه رهائن، قبل الأول من آب، أي كذا وكذا من الرهائن، وبذلك يمكنه أن يزيل من ذهنه كل ريبة نحوهم.

كيف أنذر المارشال بوجود مؤامرة ضده

وزحف الأيرلات والبارونات في رتل عظيم من الفرسان إلى لندن في الأول من آب، لحضور المؤتمر المحدد، وكان من بينهم رتشارد الأيرل مارشال، الذي سكن عند أخته، زوجة رتشارد أخو الملك، وقد سألته عن سبب قدومه، فأجابها بأنه قد جاء لحضور المؤتمر، وعندها قالت له:

«اعلم يا أخي العزيز، بأن أعداءك يتآمرون لاعتقالك، ولإعطائك إلى الملك وإلى أسقف وينكستر من أجل أن يخدموك وفق الطريقة نفسها التي خدموا بها إيرل كنت»، وكان من الصعب على المارشال أن يصدق هذه الكلمات التي صدرت عن أخته، حتى أرته برهاناً يشهد على طريقة اعتقاله، وبمن سوف يعتقل، ووقتها بدأ يصدقها، وعندما حل المساء

أخذ الطريق، ولم يرخ عنانه حتى وصل إلى ويلز. هذا وقدم إلى مؤتمر لندن كل من إيرلي شيبستر، ولنكولن، وإيرل فيرار، وإيرل رتشارد، أخو الملك، مع إيرلات آخرين وعدة بارونات، لكن مامن شيء عمل هناك بسبب غياب الإيرل مارشال وغيلبرت باسيت، وبعض النبلاء الآخرين الذين لم يقوموا بالحضور، وبناء على ذلك قام الملك بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف Seagrave بإرسال رسائل إلى جميع نبلاء المملكة، الذين يدينون له بخدمة الفروسية، فدعاهم إلى القدوم، مزودين بالخيول والسلاح، إلى غلوستر في يوم الأحد قبل صعود مريم العذراء المباركة، ورفض رتشارد مارشال وبعض الآخرين الذين كانوا متحالفين الحضور في الوقت المحدد، فما كان من الملك إلا أن عاملهم بمشابهة خونة، فأحرق قراهم، ودمر حدائقهم ومطاردتهم، وحاصر قلاعهم، وقد قيل كان النبلاء المتحالفين مع بعضهم بعضاً هم:

الإيرل مارشال، وغيلبرت باسيت مع أخيه، الذي كان جندياً متميزاً، ورتشارد سيوارد، وكان رجلاً قد تدرب على السلاح منذ صغره، وويلتر دي كيلفورد Clifford وكان فارساً منتخباً مع عدد كبير آخر ممن التحقوا بقضيتهم، وأمر الملك بعد هؤلاء جميعاً، من دون أية محاكمة في بلاطه من قبل نظرائهم، مطرودين، ورجالاً محرومين من الحقوق، وأعطى أراضيهم إلى خدمه البواتيين، أمراً باعتقالهم شخصياً أينما تم العثور عليهم في المملكة.

كيف رشا أسقف وينكستر المتحالفين مع الإيرل مارشال

استطاع بطرس أسقف وينكستر، الذي بذل كل ما توفر له من إمكانيات ومامتلكه من قدرة لاضعاف تيار الإيرل مارشال والمتحالفين معه، أن يرشو إيرلي شيبستر ولنكولن بأعطية مقدارها ألف مارك، للتخلي عن المارشال، وعن تيار العدل، والالتحاق بحزب الملك، لأن

رتشارد، أخو الملك، الذي وقف في البداية إلى جانب تيار المارشال، كان قد عاد قبل بعض الوقت إلى جانب الملك، وعندما اكتشف المارشال هذا، دخل بتحالف مع اللويلين، أمير شمالي ويلز، ومع عدد آخر من مقدمي المقاطعة، وتبادلوا الأيمان، أن مامن أحد منهم سوف يعمل سلاماً مع الملك هنري، من دون موافقة الآخرين، وفي اليوم التالي ليوم صعود القديسة العذراء، وصل عدد كبير من الجنود من القارة إلى دوفر، وذهبوا إلى الملك في غلوستر، وبناء عليه قاد جيشه باتجاه مدينة هيرفورد، يحيط به حشد من هؤلاء ومن الآخرين.

الأذى الذي أنزل بولتر أسقف أوف كارآيل

وفي هذه الأونة، عندما كان وولتر أسقف كارآيل جالساً، بعد بعض الأذى الذي لحق به من قبل الملك، صعد إلى ظهر سفينة في دوفر، ليعبر إلى القارة، لكن بعض عملاء الملك وصلوا، واعتقلوه مع جميع أصحابه، وأخرجوه معهم من السفينة، ومنعوه باسم الملك من مغادرة المملكة، من دون إذن ملكي، وأثناء وقوع هذه الحادثة نزل إلى اليابسة في ذلك المكان روجر أسقف لندن، لدى عودته من بلاط روما، وقد سمع بهذه الاهانة التي وجهت إلى الأسقف المذكور، فحرم كنسياً جميع الذين استخدموا العنف ضده، ثم انه ذهب إلى الملك، الذي وجده مع جيش كبير في مدينة هيرفورد في ويلز، وقام بحضور الملك ووجود بعض الأساقفة، فجدد قرار الحرمان الكنسي الذي تقدم ذكره أعلاه، بسبب العنف الذي تعرض له أسقف كارآيل، وذلك دون أن يعباً بغضب الملك، الذي منعه من التفوه بالقرار، واتحد معه جميع الأساقفة الذين كانوا حاضرين، بحرمان جميع الذين شاركوا بذلك الاضطراب.

التحدي الذي أرسل إلى المارشال وحصار قلعة عائدة له

وأرسل الملك بعد هذا —بناء على نصيحة أسقف وينكستر—

أسقف القديس داوود إلى المارشال لتحديه، وأصدر الأوامر بشن الحرب ضده، وبحصار قلاع، وبناء عليه، دخل الملك إلى أراضي الايرل مارشال، وألقى الحصار على احدى قلاعه، التي لا تذكر اسمها، وبعد مهاجمتها بحددة لعدة أيام، بدأت الامدادات لدى الجيش المحاصر بالنقص، ورأى الملك أنه سيكون مرغماً على رفع الحصار، ولذلك شعر بالعار الدائم لقدمه إلى هنا، وبناء عليه أرسل بعض الأساقفة إلى الايرل مارشال، وسأله أن يقوم -صدوراً عن احترامه لشخصه الملكي، ولكي لا يبدو الحصار أنه غير فعال- بتسليمه القلعة، على شرط أن يعيدها الملك إليه، خلال خمسة عشر يوماً غير معرضة للأذى، واشترط على نفسه، أنه سوف يقوم بالوقت نفسه، بناء على نصيحة الأساقفة الذين سوف يكونوا الضامنين لهذا، بالقيام بجميع الاصلاحات الموائمة في المملكة، وفي سبيل تنفيذ هذه الخطة، عيّن الملك يوم الأحد الذي سوف يحل بعد عيد القديس ميكايل، من أجل المارشال وبقية النبلاء المجردين من الحقوق للاجتماع به في ويستمنستر، وعند ذلك أعطيت القلعة إلى الملك، ورفع الحصار.

نجاة هيوبرت دي بورغ

وفي هذه الآونة، كانت رغبة بطرس أسقف وينكستر الأولى، وفوق كل شيء، موت هيوبرت دي بورغ، الذي كان سجيناً في قلعة ديفزي، فالتمس من الملك بحرارة، ورجاه كثيراً، أن يعهد إليه بالمسؤولية عن تلك القلعة، وذلك دون أن يذكر اسم هيوبرت دي بورغ، وقد أمل بذلك أن يمتلك الفرصة لقتله، وقد أنذر هيوبرت بهذه الخطط من قبل أصدقائه الموجودين في بلاط الملك، وأباحوا بذلك إلى اثنين من خدم حامية القلعة، وكانوا يتوليان خدمته، واشفاقاً منها على ما كان يعانيه، اخترعا خطة يمكنه فيها أن ينجو من الموت، وكذلك رصدوا فرصتهما، وفي عشية عيد القديس ميكايل، عندما كانت الحامية نائمة، أخذ واحد

منها هيوبرت، واستمر الآخر بالمراقبة، وقد حمله كما هو مغلولاً على كتفيه، ونزل من البرج وهو حامل للسهة التقى، وقد عبر به خلال القلعة كلها، دون أن تسمع الحامية به، وظل حاملاً له حتى وصل إلى الباب الكبير، حيث مرّ من خلاله، وعبر الخندق العميق، إنها بصعوبة كبيرة، وأخذ طريقه إلى الكنيسة الأسقفية، ولم ينزل حمله من على كتفيه حتى وصل إلى أمام المذبح الكبير، ورفض الرجلان اللذان أطلقا سراح هيوبرت أن يتركا، عادين أنه سيكون مجداً عظيماً لهما إذا ما عانيا من الموت الدنيوي من أجل الحفاظ على حياة مثل هذا الرجل العظيم.

كيف سحب هيوبرت بعنف وأخرج من الكنيسة وسجن

وعندما استيقظت الحامية، ولم تجد هيوبرت في مكانه المعتاد، خافت خوفاً عظيماً، ونزلت بقوات حاملة للمشاعل وللأسلحة، ولم تترك مكاناً في المنطقة بحثاً عنه، وبعد بعض الوقت سمع رجال الحامية بأن هيوبرت كان في الكنيسة، وقد تحرر من أغلاله، وبناء عليه اندفعوا هائجين إلى هناك، فوجدوه أمام المذبح الكبير، والصليب المقدس بين يديه، وقاموا على الفور باعتقاله بالقوة، وضربوه وساقوه أمامهم بالسلاح وبقبضات الأيدي، وأعادوه إلى القلعة ومعه محرريه، حيث سجنوه بشدة أكبر من ذي قبل.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى مسامع روبرت أسقف سالسبري، ذهب إلى الكنيسة وأمر أولئك الذين خرقوا حرمة الكنيسة، باطلاق سراح هيوبرت على الفور، وبإعادته إلى حرم الكنيسة في الوضعية نفسها التي وجدوه فيها، لكن قادة القلعة أخبروه وهم يصرخون بأن هيوبرت ينبغي شنقه وليس اطلاق سراحه، وبناء عليه رفضوا تسليمه إلى الأسقف، وقام الأسقف بموجب السلطات الممنوحة له، بانزال عقوبة الحرمان كنسياً بجميع الذين احتجزوه بالاسم، والذين استخدموا العنف معه، ثم ذهب الأسقف وبصحبه روجر أسقف

لندن، إلى الملك، وقدما شكوى إليه، حول الأذى الذي لحق بهيوبرت، ولم يترك الملك حتى حصلاً منه على اطلاق سراحه، وهكذا جرى في الثامن عشر من تشرين الأول ارساله عائداً إلى الكنيسة، على كراهية من الملك لذلك، وقام الملك فأرسل أوامر برسالة إلى عمدة تلك الكونتية، بأن يحاصر الكنيسة من أجل إجاعة هيوبرت حتى الموت.

كيف استرد المارشال القلعة التي كان قد سلمها إلى الملك

انقضت في هذه الآونة مدة الخمسة عشر يوماً، منذ تسليم المارشال قلعته إلى الملك على شرط أن يعيدها إليه ثانية، عندما يسأله ذلك، ونظراً لمضي المدة، أرسل إلى الملك يسأله أن يعيد إليه قلعته، وفقاً لمعاهدتهما، التي من أجلها عمل أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف، الذي مارس أثناء ذلك أعمال المسؤول عن العدالة، كفيلين له، وكانا قد أكدا كفالتها بقسم، ورد الملك على طلبه غاضباً، وقال بأنه لن يسلمه إياها، بل هو بالحري سوف يستولي على قلاع الأخرى ويخضعها، وعندما رأى المارشال أنه لا اليمين ولا شروط السلام قد روعيت من قبل مستشاري الملك، جمع جيشاً كبيراً، وألقى الحصار على القلعة التي كانت من قبل قلعته، ووزع آلات حربه من حولها، وبسهولة أعاد الاستيلاء عليها.

وكان الملك في تلك الآونة في ويستمنستر، حيث كان حاضراً في مؤتمر التاسع من تشرين الأول، حسبما كان قد وعد النبلاء من أجل التشاور معهم في سبيل عمل الاصلاحات الضرورية في المملكة، لكن النصائح الشريرة التي اتبعها حالت دون تنفيذ ذلك، وقام عدد من الأساقفة الذين كانوا حاضرين بالتوسل إلى الملك بكل تواضع، وباسم الرب بأن يقيم سلاماً مع باروناته ومع النبلاء الآخرين الذين حكم عليهم بالنفي من دون أية محاكمة من قبل نظرائهم، وأحرق قراهم وأبنيتهم، وقطع أشجار غاباتهم وأشجارهم المثمرة، ودمر حدائقهم وبحيراتهم، وقال الملك — على كل حال — بأنهم كانوا خونة، مع أنه

بمساعدهتهم كان من المتوقع إعداد خطه، وإدارة أعمال المملكة، وردّ أيضاً بطرس أسقف وينكستر بأن النظراء في انكلترا ليسوا مثل أولئك في فرنسا، ولذلك فإن ملك انكلترا يمتلك الحق، بوساطة رجال العدالة الذين عيّنهم، أن يقوم بنفي أية أشخاص مجرمين من المملكة، وأن يدينهم بعد المحاكمة، ولدى سماع الأساقفة هذه الكلمات، هددوا بصوت واحد، بأن يجرّموا كنسياً بالاسم، الشخص الرئيس بين هؤلاء المستشارين الأشرار، وبين هؤلاء، سمووا بشكل خاص:

بطرس أسقف وينكستر، وابنه بطرس دي ريفسول، وستيفن سيغريف، المسؤول عن العدالة، وروبرت باسلوي المتسلم للخزينة، وعلى هؤلاء ردّ مهدياً، بطرس أسقف وينكستر، بأنه كرّس أسقفاً من قبل الحبر الأعظم في روما، ولذلك هو معفي من سلطتهم، وقد ترفع إلى الكرسي الرسولي ضد تفوههم بهذا القرار ضده، ثم قام الأساقفة المتقدم ذكرهم بالحرمان كنسياً جميع الذين أبعثوا عواطف الملك عن رعاياه الانكليز الطبيعيين، ومن ثم أفسدوا سلام المملكة.

كيف استدعى الملك جميع الذين يدينون بخدمة الفروسية له للمثول أمامه

أثناء هذا المؤتمر وصل رسل إلى الملك، أخبروه بأن الايرل مارشال، قد استرد قلعه في ويلز، وقد قتل بعض الفرسان الملكيين والموظفين هناك، وغضب الملك غضباً عظيماً لدى سماعه هذه الأخبار، وأمر الأساقفة بالحرمان الكنسياً بالاسم، لأنه استولى على القلعة المذكورة، لكن الأساقفة أجابوه بأنه لا يستحق الحرمان الكنسي، لاسترداده فقط القلعة التي هي ملكه، وعند ذلك أرسل الملك الغاضب رسائل إلى جميع مناطق انكلترا، أمر فيها جميع الذين يدينون له بخدمة الفروسية، بالاجتماع في غلوستر في اليوم التالي لعيد جميع القديسين، وهم مجهزين بالخيول والسلاح، للزحف إلى حيث يرغب بقيادتهم.

وفي هذه الآونة نفسها، جرى حمل هيوبرت دي بورغ المسؤول السالف عن العدالة بعيداً عن كنيسة ديفزي، من قبل بعض الرجال المسلحين، وبعدها ألبسوه بشكل صحيح بلباس فارس، حملوه إلى ويلز، حيث التحق بأعداء الملك في حوالي الساعة الأولى من يوم ثلاثين تشرين أول.

كيف حارب النبلاء المطرودون جيش الملك عند غروسمونت

وكان الملك قد جمع في هذه الآونة جيشاً قوياً في غلوستر، زحف معه نحو هيرفورد في ويلز، حيث غزا أراضي المارشال، وسعى، مستخدماً جميع الطاقات التي توفرت لديه، لأن يجرمه من ميراثه، ولأن يأسره شخصياً، لكن ذلك العسكري الحذر، قام — على كل حال — قبل وصول الملك بسحب جميع المواشي والامدادات، ولذلك لم يستطع الملك الاقامة هناك، لانعدام المؤن لديه، فانقل مع جيشه إلى قلعة غروسمونت Grosmont وبعدها أقام هناك عدة أيام، علم المارشال مع المطرودين المتحدين، بوساطة الجواسيس، بأن الملك قد أمضى الليل داخل تلك القلعة، في حين عسكر جيشه خارج الأسوار، لذلك زحفت كتلتهم كلها، باستثناء المارشال، الذي رفض أن يقاتل الملك، إلى هناك مع الزعماء الويلزيين وجيش كبير، وجاء زحفهم بعد حلول الظلام في يوم عيد القديس مارتن، وانقضوا على عساكر الملك الذين كانوا نائمين متمددين في خيامهم، فاستولوا على أكثر من خمسمائة حصان، مع جميع أثقالهم وتجهيزاتهم، وهرب الرجال أنفسهم، وهم عراة تقريباً في جميع الاتجاهات، ولم يرغب المتصرون — على كل حال — بجرح أو بأسر أيّاً منهم، وقد عشر على فارسين قد قتلوا من بين العدد كله، ثم انهم أخذوا جميع العربات والعجلات الحاوية للمال، والامدادات والسلاح، وبعدها أودعوا بعناية غنائمهم، انتقلوا إلى أماكنهم السليمة للاختباء، وكان جميع النبلاء التالية أسماؤهم شهوداً

على هذه الواقعة:

بطرس أسقف وينكستر، ورالف أسقف شيلستر، وستيفن سيغريف المسؤول عن العدالة، وبترس دي ريفول المسؤول عن الخزينة، وهيوج بيغود إيرل أوف نورفولك، ووليم إيرل أوف سالسبري، ووليم بوشامب Beauchamp ووليم دوبني Daubenev الأصغر، وعدد كبير آخر، شكلوا الذين هربوا وهم تقريباً عراة، وقد فقدوا جميع مقتنياتهم، وغادر إثر هذا عدد كبير من جنود الجيش، ولاسيما الذين فقدوا خيولهم وجميع أموالهم، وعادوا إلى مواطنهم وهم على درجة عالية من الاضطراب، أما الملك، الذي بقي هكذا وحيداً، في وسط أعدائه، عهد إلى قطاع الطرق من رجاله البواتيين بالمسؤولية عن قلاع ويلز، لصد هجمات أعدائه، وأعطى قيادة جيشه إلى النبيلين: جون أوف موناوث Monmouth ورالف دي ثوني، وأعطى الأخير أيضاً قلعة ماتيلدا، العائدة إليه بموجب امتياز قديم، وبعدهما أكمل الملك هذه الترتيبات، عاد هو شخصياً إلى غلوستر.

وسمعت في بداية شهر تشرين الثاني، من هذا العام نفسه، أصوات رعد، وقد ترافقت مع برق مخيف، واستمر ذلك لعدة أيام، وصار مثلاً عاماً بين العمال، بأن المرأة ينبغي أن لاتبكي لموت أبيها، أو أولادها، بل بسبب العواصف الرعدية، لأنهم يمنعون دوماً وصول المجاعة أو الموت، أو بعض مثل هذه الأشياء.

المعركة الحادة بين المارشال والبواتيين

وفي العام نفسه، وصل المارشال في إحدى غاراته لجمع الأعلاف في مناطق أعدائه، إلى بلدة موناوث، التي كانت معادية بالنسبة له، وفي الوقت الذي أمر فيه جيشه بمتابعة زحفه في حملته، تحول مع مائة من أتباعه الفرسان، وتوجه نحو قلعة ذلك المكان لفحص أوضاعها، ذلك

أنه كان يفكر بحصارها بعد عدة أيام، وعندما كان يتجول حول أسوار البلدة، شوهد من قبل بلدوين دي غوسني Guisnes الذي إليه كان الملك قد عهد بتلك القلعة مع عدد من البواتيين، وفهم بأن المارشال كان هناك مع عدد قليل من أتباعه فقط، من أجل القيام بفحص القلعة، فحمل مع ألف من الجنود الشجعان، والمجهزين بشكل جيد، وطارده بسرعة كاملة، ناوياً أن يأسره مع أتباعه، وأن يحملهم إلى داخل البلدة، وعندما شاهد رفاق المارشال الزحف الشديد للأعداء، نصحوه باللجوء إلى الفرار من أجل السلامة، وقالوا له إنها ستكون عملية تهور لعدد صغير مثلهم الاشتباك مع مثل ذلك العدد من الأعداء، وعلى هذا ردّ المارشال، أنه حتى الآن لم يدر ظهره إلى الأعداء في المعركة، ولن يفعل ذلك الآن، وشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بشجاعة، وأن لا يموتوا دون الانتقام لأنفسهم، وعند ذلك انقض أفراد العساكر الذين قدموا من القلعة، وحملوا عليهم بكل شدة، وأعقب ذلك قتال عنيف مع أن الفتتين لم تكونا متعادلتين، وكان هناك مئة فقط من جهة المارشال، كان عليها التصدي لألف من خصومهم، ولقد قاتلوا خلال الجزء الأكبر من النهار، وقام بلدوين دي غوسني مع اثني عشر من خيرة جنوده الأشداء والمسلحين بشكل جيد، بالحملة على المارشال شخصياً، وسعى إلى أسره وحمله معه إلى القلعة، وقد أبقاهم المارشال بعيداً عنه، وكان يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، ورمى كل من اقترب منه إما بقتله أو بإيقاعه بقوة ضرباته، ولقد استطاع بقوة ذراع ويد واحدة أن يصمد ضد اثني عشر من أعدائه وأن يدافع عن نفسه لمدة طويلة من الوقت، وبعد مضي وقت طويل لم يعد أعداؤه يتجرأون على الاقتراب منه، فقتلوا حصانه الذي كان يمتطيه برماحهم، لكن المارشال الذي كان واسع الخبرة بطرائق الفرنسيين بالقتال، أمسك واحداً من الفرسان الذين كانوا يقاتلونهم من قدميه، وسحبه وألقاه أرضاً، ثم امتطى بكل سرعة فرس عدوه، وجدد القتال، وشعر الفارس بلدوين بالخجل، من

أن المارشال قد دافع عن نفسه بيد واحدة، ضد مثل ذلك العدد من أعدائه، وحمي غضبه فقام بحملة يائسة عليه، وأمسك خوذته وانتزعها بعنف من على رأسه حتى أن الدم اندفع من فمه ومن فتحتي أنفه، ثم أمسك حصان المارشال من لجامه، وسعى إلى جره مع راكبه نحو القلعة، في حين ساعده آخرون في ارغام المارشال ودفعه من الخلف، وتمكن المارشال باستخدام سيفه والضرب به نحو الخلف، من إلقاء اثنين من أعدائه أرضاً بعدما أصابها بالجراحة، لكنه لم يستطع تحليص نفسه من قبضتيهما، وفي هذه اللحظة، شاهد واحد من رماة القسي العقارة من جماعة المارشال، بأن مولاه في خطر، فأطلق سهمه من قوسه، فأصاب بلدوين، الذي كان يجير المارشال، في صدره، وخرق درعه، فسقط أرضاً، معتقداً أنه أصيب بجراح مميتة، وعندما رأى رفاقه هذا، تركوا المارشال، وذهبوا لانهاض بلدوين ورفعوه من على الأرض، لأنهم ظنوا أنه قد مات.

المنذبة التي أوقعها المارشال عند قلعة مونهاوت

وأثناء وقوع هذه الحوادث، وصلت أخبار إلى جيش المارشال تحدثت عن الخطر الذي كان به، وبناء عليه زحف جنوده نحوه بكل سرعة لمساعدته، وعلى الفور أرغموا أعداءهم على الفرار، وكان هناك جسر في جوار القلعة، من فوقه كان الفارون يأملون بالنجاة، لكنهم وجدوه مدمراً، وبناء عليه رمى عدد كبير منهم بأنفسهم بالنهر، وقد غرقوا مع أسلحتهم وخيولهم، ولم يكن لدى آخرين وسائل للهرب، ولذلك قتلوا من قبل مطاردتهم، واعتقل بعضهم وأخذوا أسرى، وعاد عدد قليل من الذين كانوا قد حملوا من القلعة، ووقع بالأسر من جانب المارشال توماس سيوورد Siward وكان فارساً شجاعاً مع اثنين من رفاقه، ونقلوا إلى القلعة، ووقع من عساكر الحامية بالأسر خمسة عشر فارساً مع عدد كبير من الجنود، وقد أخذهم المارشال مع خيولهم وأسلحتهم،

وأسلاب أخرى، وبقيت أعداد من الذين قتلوا ممددين على أرض المعركة، وكان من بين الذين شوهدوا منهم ويلزيين وبواتيين، وأجانب آخرين، وحمل بلدوين دي غوسني إلى القلعة وهو مصاب بجراحة كبيرة، ووقعت هذه المعركة قرب القلعة المذكورة أعلاه في يوم عيد القديسة كاترين «٢٥ - تشرين ثاني».

ونصب بعد هذه المعركة المارشال مع غيلبرت باسيت، ورتشارد سيوورد، وآخرين من المطرودين المتحدين، كمائن للبواتيين الذي كانوا مسؤولين عن قلاع الملك، وبناء عليه عندما كان أياً منهم يخرج للاعتلاف، كانوا يهاجمون، ولذلك لم يمنحوا أية مكان، ونتيجة لذلك أنتنت جميع الأجواء في ذلك الجزء من المنطقة وجافت، بسبب أعداد الأجانب الموتى الذين تمددوا هناك على الطرقات وفي الأماكن الأخرى.

حكمة المارشال العظيمة وتقديره للعدل

وفي حوالي تلك الآونة نفسها، وفي يوم الخميس التالي قبل الميلاد، حدث أن كان الايرل مارشال يمضي الليل في دير مارغان Margan وفي ذلك المكان قدم إليه راهب من رهبان طائفة الفرنسيسكان اسمه أغنل Agnell وكان تابعاً للملك ومستشاراً، وقد أخبره بالذي قيل حوله في البلاط من قبل الملك، ومن قبل مستشاريه، فقد ذكر بأنه «سمع الملك يقول:

إنه مع أن المارشال قد حمل السلاح ضده بشكل خياني وغير عادل، إنه إذا ما اختار -دون التقدم بشرط آخر- أن يلقي بنفسه كلياً على رحمة الملك، فالملك سوف يمنحه أماناً على حياته وعلى أطرافه، وسوف يسمح له بجزء كاف من الأرض في هيرفورد شاير، يعيش منه بشكل مشرف، وسمع كذلك من ستيفن سيغريف بأن شروط العفو عن المارشال، سوف يتعرف المارشال عليها، بوساطة اثنين من أصدقائه

الموثوقين، اللذان سوف يخبران المارشال بأنه يستطيع بأمان أن يثق برحمة الملك، إنما في الوقت نفسه هما لن يخبرا المارشال نفسه أو أي شخص آخر، لأن عليه أن يفعل ذلك، دون أن يعرف الشروط التي منحت له»، كما أنه سمع أيضاً من آخرين في البلاط، أنه سيكون من المفيد للمارشال أن يفعل كما ورد أعلاه، فذلك هو واجبه، وذلك سوف يكون مفيداً له ولصالحه، وسوف يكون سليماً بالنسبة له أن يفعل ذلك، وأن ذلك كان واجبه، لأنه قد تسبب بإلحاق الأذى بمولاه، لأنه قد قام قبل أن يؤدي الملك ممتلكاته أو شخصه، بغزو أراضي الملك، فدمر وأحرق الحاصلات، وقتل الناس، وإذا ما ادعى المارشال وترافع بأنه قد فعل ذلك للدفاع عن ذاته، وعن ميراثه، فقد قالوا بأن الأمر لم يكن كذلك، لأنه لم تكن هناك أية نوايا شريرة ضده شخصياً أو ضد ممتلكاته، لذلك كان ينبغي عليه، عدم اللجوء إلى العنف ضد مولاه الملك حتى يكشف بوساطة المشاهدة العينية بأن الملك كانت لديه مثل تلك النوايا الشريرة ضده، فوقتها كان مسوغاً له بأن يعمل الذي عمله».

وعلى هذا كله عمل المارشال الرد التالي إلى الراهب أغنل، حيث قال:

«إنه بالنسبة للحجة الأولى، وأن ذلك كان واجبي، لأنني غزت أراضي الملك، هذا ليس صحيحاً، لأنني كنت دوماً جاهزاً للالتزام بالقانون، وبقرار نظرائي في بلاطه، وغالباً ما سألت الملك — بوساطة الرسل — أن يمنحني هذا، لكنه رفض دوماً منح ذلك لي، وقام هو نفسه بغزو أراضي، وقاتلني مراغمة لجميع شرائع العدل، وأملاً مني بإرضائه بخضوعي، دخلت بالمفاوضات معه عن طواعية وتقبلت شروط سلم معه، مع أنها كانت مؤذية جداً لي شخصياً، وبموجبها كان قد تم الاتفاق، أنه ما لم يقيم الملك من جانبه بمراعاة هذه الشروط وتطبيقها نحوي، ينبغي أن أبقى تماماً في الوضع نفسه، كما كنت من قبل الموافقة على السلم المذكور، أي أكون متحرراً من كل ولاء له، وفي حالة

رفض وتحد له، كما كنت من قبل أسقف القديس داوود، وبناء عليه، بما أنه أخفق في مراعاة شروط السلام في كل جانب من جوانبها، إنه كان مسوغاً بالنسبة لي، تبعاً لاتفاقي معه، أن أسعى لاسترداد ما كان ملكاً لي، وأن أضعف قدرته بكل وسيلة ممكنة، ولاسيما وأنه كان يسعى متشوقاً إلى تدمير ي، وإلى حرمان ي من ميراثي، ولاعتقالي شخصياً، وأنا من هذا كله متأكد تماماً، وإذا كان الأمر ضرورياً، يمكن أن أبرهن عليه، وزيادة على ماتقدم، أنه بعد هدنة الخمسة عشر يوماً، قبل دخولي إلى ويلز، أو بالحري، قبل اتخاذ أي إجراء للدفاع عن ذاتي ضد أي انسان، قام هو — من دون أية محاكمة — فحرمني من وظيفتي، ووظيفة المارشالية، وجردي منها، مع أنها عائدة إليّ، ذلك أنني أحملها بموجب الحق الوراثي، ورفض بشكل قاطع ردها إليّ، عندما سألته ذلك، وبهذا اقتنعت بشكل واضح بأنه لاينوي التوصل معي إلى أية شروط سلام، لأنه هددني بعد الهدنة بشكل أسوأ من ذي قبل، ولذلك أنا لست خاضعاً له، بل متحرر من التبعية إليه، مع أنني سأعود إلى شروط أول حالة رفض، التي ذكرت أعلاه، وفقاً لهذه الاتفاقية، وبناء عليه، كنت مسوغاً ومازلت مسوغاً في الدفاع عن نفسي، وفي الوقوف ضد المؤامرات الشريرة لمستشاريه بكل وسيلة في مقدرتي»، وقال مستشار الملك أيضاً، بأنه سوف يكون لصالح المارشال ومنفعته أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأن الملك كان أغنى، وأكثر قوة مما هو عليه، وإذا كان المارشال سيعتمد على عون الأجانب، يمكن للملك أن يجلب سبعة أشخاص مقابل كل واحد يمكن للمارشال أن يقنعه بمساعدته، لأن بعضاً من الأجانب أقرباء للملك، وقد عرضوا عليه تقديم مساعدتهم، وهؤلاء ليسوا اسكوتلنديين، ولافرنسيين، ولاويلزيين، ويمكن لهؤلاء أن يقدموا إلى انكلترا، وأن يجردوا عملاً من أجل جميع أعدائه، وهم يمكنهم أن يقدموا بحشود كبيرة كافية لتغطية وجه البلاد كلها، ورد المارشال على هذه الحجة قائلاً:

«صحيح أن الملك أغنى مني، وأكثر قوة، لكنه ليس أكثر قوة من الرب، الذي هو عادل بذاته، والذي فيه أضع آمالي بالسلامة، وفي الحصول على امتيازاتي في المملكة، وأنا لأضع ثقتي في أجنب، ولا أنشد تحالفهم وعونهم، ولن أطلب مساعدتهم، مالم — لاسمح الرب — أرغم على فعل ذلك، بضرورات غير متوقعة، ولا يمكن تجنبها، وأنا أعرف بشكل جيد أن بإمكان الملك أن يجلب سبعة مقابل واحد أجلبه، وأعتقد أنه سوف يجلب في أقرب وقت ممكن كثيراً منهم لمساعدته، إلى حد أنه لن يكون بإمكانه، بأية وسيلة من الوسائل، تحرير نفسه والمملكة منهم، لأنني سمعت من أناس موثوقين، بأن أسقف وينكستر، قد صمم على إخضاع جميع انكلترا لإرادته، وأنه بات مشغولاً بذلك منذ الأيام التي كان فيها في القارة مع الامبراطور، ولذلك بدأ هذه الحرب، لكي يجد الفرصة من أجل طلب المساعدة من الامبراطور، ولكي يتمكن أيضاً من استدعاء الامبراطور للقدوم شخصياً، ويبدو أن هذا الذي سيكون، لأنه عندما نشب خلاف بينه وبين الملك، كان قد غادر انكلترا، وهاهو الآن قد أقسم بأنه سوف يرسل أعداد كبيرة من الأجنب إلى انكلترا، وسوف يتابع ذلك، حتى يغطي وجه البلاد كلها»، ومجدداً قال مستشار الملك أنه سوف يكون أميناً للمارشال وسليماً أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأنه يمكنه أن يثق بالملك وبمستشاريه، وأن يثق بالملك، بسبب أنه كان رحيماً، وجديراً بالثقة، وأن يثق بمستشاريه لأنهم لم يتسببوا بأي أذى للمارشال، لأنهم بالفعل يجبونه بقلوبهم، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«من الممكن أن يكون الملك رحيماً، لكنه مفضل بنصيحة هؤلاء الناس، الذين نشعر بقرارة أنفسنا أننا متأذين كثيراً منهم، وأن يكون الملك موضع ثقة، فهذا واضح بالنسبة له شخصياً، لكن بالنسبة لمستشاريه لدي هذا الذي سوف أقوله، إنه مامن وعد عمل لي قد

حوظ عليه حتى الآن، والذي قاله مستشاروه من أنهم لم يتسببوا بأذى قط لي، فهذا زائف، ذلك أنهم جلبوا جميع اضطراباتي وأنزلوها إلي، وإليهم أعزوها كلها بشكل رئيسي، كما انني لأستطيع أن أصدقهم عندما يقولون بأنهم بحبونني، حتى أراهم يتصرفون بشكل مغاير، لما رأيتهم يوماً يفعلونه لأنهم خرقوا عدة أيان تعاون، أي فيما يتعلق بايرل أوف كنت، الذي إليه عملوا ثلاثة أنواع من الأيمان، التي لم يرعوها، بل حثوا بها وخرقوها، وكذلك فيما يتعلق بالشروط التي قدمها الايرل المتقدم الذكر، التي حثوا بها وتخلوا عنها وفق الطريقة نفسها، ومثل هذا ماتعلق باليمين الخاص بالامتيازات الموجودة في الصك العظيم، الذي أيضاً خرقوه، ومن أجل ذلك حرموا كنسياً على أساس أنهم حائنين باليمين، وقد حثوا باليمين أنفسهم فيما يتعلق بالاستشارة الصحيحة التي أقسموا أنهم سوف يعطونها إلى الملك، لأنهم يوماً يشيرون عليه بما هو معاكس للعدل، وستيفن سيغريف الذي كان قد أقسم على رعاية القوانين العادلة، يقوم الآن بافسادهم، ويقدم قوانين ليست مستخدمة منذ زمن طويل، ولأسباب أخرى كثيرة، هو وكذلك المتعاونين معه جديرين بعدم الثقة من قبل الرب ومن قبل الانسان، لأنه أوليس هو، وأوليسوا هم محرومين كنسياً؟»، وكانت الحجة التالية التي قدمها مستشار الملك ضد المارشال، هي أنه قاتل شخص مولاه الملك في غروسمونت، قبل أن يدخل الملك إلى أراضيه، وبذلك سبب أذى له، وبناء عليه إن واجبه يقضي عليه أن يسلم نفسه ويضعها تحت رحمة الملك، كما ورد الذكر أعلاه، في سبيل أن يشرفه ويكرمه، وأن لايقدم حجة للآخرين للقيام بحملات معادية ضده، وعلى هذا رد المارشال، بأنه بالنسبة لما يتعلق به شخصياً، هو زيف وكذب الإدعاء بأنه كان حاضراً أثناء ذلك القتال، وإذا ماحدث وكان واحد من أتباعه حاضراً هناك، لقد قاتلوا أتباع الملك، وليس شخصه الملكي، ثم قال:

«وإنهم إذا ما فعلوا ذلك ينبغي أن لاتعجب منه، لأن الملك قد قدم إلى أراضي مع جيشه لمهاجمتي ولإلحاق الأذى بي بكل طريقة من الطرق، وهذا مبرهن عليه بكل وضوح بوساطة الرسائل التي استدعى بها الجميع من كل أنحاء انكلترا لمساعدته على تدميري، وبما أن الاعتداءات المذكورة أعلاه قد عزيت إلي بشكل زائف، وأنه صحيح تماماً أن الملك قد تصرف نحوي بشكل سيء في الوقت الذي كنت أنظر فيه إلى رحمته أكثر من أي وقت مضى، وهو ما يزال يمتلك النوايا نفسها نحوي كما كان من قبل، وما برح يعتمد على مشورة هؤلاء الرجال، الذين أعلم أنه بسبب نصائحهم له قد حدثت هذه الأضرار ولحق بي مالحق من أذى، وكذلك بجماعتي، ولذلك ينبغي أن لانخضع لرحمته ولا يمكننا فعل ذلك، ثم إنه لن يكون مشرفاً للملك ولا لصالح سمعته، إذا ما رضخت إلى رغباته، إذا لم تكن هذه الرغبات مؤيدة بأي منطق، لابل إن ذلك سيبدو بالحري وكأنني أقدم إهانة له وإلى العدل، العدل الذي من واجب الملك ممارسته ورعايته نحو رعاياه، ولسوف أضرب بذلك مثلاً سيئاً إلى كل انسان، هو التخلي عن قضية العدل، والتجرد والتخلي عن جميع امتيازاتي، بسبب خطأ بالتقدير، معاكس لكل عدل، ولإلحاق الأذى برعيتي، لأننا في تلك الحالة، سوف يظهر أننا نحب مقتنياتنا الدنيوية أكثر من العدل»، وعلى هذا أوضح المستشار وذكر ضد المارشال مجدداً، أنه قد تحالف مع أعداء الملك الرئيسيين:

الفرنسيين، والاسكوتلنديين، والويلزيين، وأنه بذلك بدا بالنسبة لمستشاري الملك أنه قد فعل ذلك من أجل اغضاب الملك وايدائه وايداء المملكة، وعلى هذا رد المستشار قائلاً:

«أما بالنسبة للفرنسيين، فهذا زائف بكل وضوح، والحديث أيضاً عن الاسكوتلنديين والويلزيين هو زائف أيضاً، إلا باستثناء ملك اسكوتلندا، وللويلين، الأمير الويلزي، لأنهما لم يكونا أعداء، بل تابعين

مخلصين له، وقد بقيا كذلك، حتى نزلت بهما الأضرار من قبل الملك ومن قبل مستشاريه، فأرغما مكرهين مثلي على سحب ولائهما منه، ولهذا السبب شكلت حلفاً مع هذين الأميرين، ذلك أننا نكون أحسن حالاً عندما نكون متحدين، وأفضل مما لو كنا ممزقين، نناضل في سبيل امتيازاتنا، وندافع عن حقوقنا التي حرمتنا منها بشكل غير عادل، وسلبت منا بمعيار كبير»، ثم إن مستشار الملك أوضح من جديد بأن المارشال، لا يحتاج أن يضع ثقة في حليفه هذين، لأن الملك يستطيع —دون أن يعرض أراضيه للخطر— إبعادهما عنه عندما يشاء، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«انه لما لاشك فيه أن هذه الواقعة تظهر بوضوح شرور مستشاريه، لأنهم يرغبون في أن يجعلوا الملك يتحمل كل نوع من الأذى، من هذين الذين دعوهما باسم عدويه الرئيسيين، من أجل ائذائي، مع أنها كانا دوماً من رعاياه المخلصين، وطوال ماسمح لي، أنا سوف أكون كذلك، إذا ما أعاد لي وإلى أصدقائي حقوقهم الصحيحة»، وكانت الحجة الثانية التي قدمها مستشار الملك، بأن لدى البابا والكنيسة الرومانية تقدير خاص إلى الملك وإلى المملكة، والبابا على استعداد لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع أعدائه، ويبدو أن هذا قريب وفي متناول اليد، لأن الملك والمستشارين قد أرسلوا وراء المندوب البابوي، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«إنني مسرور لسماح مايقولونه حول مايتعلق بالبابا وبالكنيسة الرومانية ومن أجل التقدير العظيم الذي لديهم للملك وللمملكة، فذلك يعني أنهم يرغبون أكثر منه أن يحكم مملكته ورعاياه وفقاً لشرائع العدل، وأنا أيضاً مسرور لسماح بأن البابا سوف يجرم كنيسياً أعداء المملكة، لأن الأعداء هم أولئك الذين يشيرون على الملك بما هو ضد العدل، حسبما تبرهن أعمالهم على ذلك، لأن العدل والسلام يسيران معاً

يداً بيد، وعندما يفسد العدل، يخرق السلم أيضاً، ومجدداً أنا مسرور لأن المندوب البابوي قادم، لأنه كلما ازداد الناس هنا الذين سيسمعون بعدالة قضيتنا، كلما ازداد العار الذي سوف يلحق أعداء العدل، والآن مع أنني مقيم بشكل خاص مع أحزاني، يمكنني قول الشيء نفسه فيما يتعلق بأصدقائي، وحلفائي، وباسمهم ولصالحهم أتقدم بالشكوى نفسها التي أتقدم بها باسمي ولصالحني، ومن دونهم لا يمكنني أن أعمل أي شيء مطلقاً، في سبيل الوصول إلى ترتيبات دائمة».

كيف احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في غلوستر

سنة ١٢٣٤م، التي كانت السنة الثامنة عشرة لحكم الملك هنري، فيها عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في غلوستر، مع حاشية صغيرة فقط — لأنه هجر من قبل عدد كبير من النبلاء، الذين كانوا قد جردوا قبل وقت قصير مضى من جميع ممتلكاتهم — في قلعة غروسمونت، كما تحدثنا من قبل، ونزل في الوقت نفسه الصقيع بحدة كبيرة، حتى أن الحاصلات في الحقل قد دمرت، وجذور الأشجار في الحدائق قد اهترأت، وتجمدت جذور أشجار التفاح حتى عمق أربعة أقدام وماتت، واستمر هذا من دون تساقط للثلوج حتى عيد طهارة القديسة مريم، وقد أعقب هذا في العام نفسه أجواء غير صحيحة تماماً، وأنواء ليست في مواسمها، وتبع ذلك ندرة كبيرة في جميع منتجات الأرض.

كيف أحدث المارشال مذبحه كبيرة بين أعدائه

بعد يوم عيد الميلاد جمع جون أوف مونهاوث، وكان رجلاً نبيلًا، قد قاتل إلى جانب الملك في ويلز، جيشاً كبيراً، ليفاجيء الأيرل مارشال، وكان هذا الأخير قد أخبر بما ينويه، فحمل نفسه مع جيشه إلى الغابة التي كان عدوه سيمر بها، من أجل أن يغرر بالذين فكروا بتضليله، وعندما وصل رجال العدو إلى مكان الكمين، انقض المارشال وجيشه

عليهم وسط زعقات الأبواق والنفير، وأخذوهم على حين غرة، وأرغموهم فوراً على الفرار، وطاردهم عن قرب، وقتلوا أعداد كبيرة من البواتيين ومن الآخرين، ونجا جون نفسه بعد صعوبات جمة وكان ذلك عن طريق الفرار، وبعد ذلك تقدم المارشال زاحفاً مع جيشه، ونهب وأحرق القرى والبيوت، والممتلكات الأخرى العائدة إلى جون المذكور، وبذلك جعله فقيراً ومتسولاً بدلاً من رجل غني، كما كان، ثم عاد إلى مناطقه محملاً بغنائم وأسلاب ضخمة جداً، وهو يسوق قطعان كبيرة من المواشي.

كيف أثار النبلاء المطرودون معارضة كبيرة ضدّ مستشاري الملك

وأثناء عيد الميلاد نفسه، شنت حرب قاسية ومحزنة ضد الملك، وضد مستشاريه، لأن رتشارد سيورد بالتعاون مع آخرين من النبلاء المطرودين، هاجموا ممتلكات الايرل رتشارد، أخي الملك، على مقربة من بريهل Brehull وأحرقت بيوته ومحاصيله، حتى لحق ذلك المواشي التي كانت واقفة في الاسطبلات، كما أنهم قاتلوا سيغريف، بلد ستيفن المسؤول عن العدالة، وغادروا ذاهبين أخذين معهم بعض الخيول الثمينة ومقتنيات أخرى، كما أنهم دمروا بالنار قرية عائدة لأسقف وينكستر، على مقربة من الموضع الأنف الذكر، وحلوا معهم كميات من الغنائم، وراعى هؤلاء الجنود حكماً واحداً بينهم بشكل عام، هو أنهم لم يلحقوا الأذى أو يهاجموا أي واحد، باستثناء مستشاري الملك غير العادلين، الذين بوسائلهم قد سيقوا إلى المنفى، غير أنهم دمروا كل الذي عاد إلى هؤلاء الرجال، ودمروا وأحرقوا غاباتهم، واقتلعوا أشجار فواكههم من الجذور.

الحملة ضدّ شروبري

وبعد هذا، أثناء ثمانية عيد الغطاس، جمع الايرل مارشال، وللوليلين

الزعيم الويلزي كل القوات التي تمكنا من حشدها، وتوغلا مسافة بعيدة داخل الأراضي الملكية، ناشرين للنار حيثما ذهبوا، ولذلك لم يتوفر مكان من حدود ويلز حتى بلدة شروبري Shrewsbury قد نجا من أعمال عيستها وافسادهما، ثم إنهما أحرقا بلدة شروبري، وعادا بعد ذلك إلى ديارهما مع أسلاب ثمينة، وكان الملك هنري أثناء جميع هذه الاجراءات التي قام بها أعداؤه، مقيماً بدون نشاط في غلوستر مع أسقف وينكستر، لأنه لم تكن لديه قوة عسكرية كافية للتصدي لهم، ولذلك تراجع مقهوراً مجللاً بالعار، إلى وينكستر، تاركاً جميع تلك المنطقة معرضة للنهب من قبل أعدائه، كما كان ذلك واضحاً، ولقد كان منظرأ مرعباً للمسافرين لأن يروا جثث القتلى، الذين كانوا لايمكن تعدادهم تقريباً، ممددين على الطرقات، وهم غير مدفونين، وعراة، طعمة للحيوانات المفترسة، ولجوارح الطير، وقد أفسدت الروائح التي صدرت عنهم الهواء إلى حد أن الأموات قد قتلوا الأحياء، وهكذا صار قلب الملك قاسياً جداً ضد المارشال، بسبب النصائح الشريرة التي أصغى إليها، وكان غضبه شديداً إلى حد أنه مع أن الأساقفة نصحوه بأن يعمل سلاماً مع ذلك الرجل النبيل، الذي قاتل فقط في سبيل نيل العدل، أجاهم بأنه لن يتوصل إلى أية اتفاقات تصالح معه، ما لم يتوسل إليه طالباً رحمته، وطوق حول رقبتة، وأن يعلن عن نفسه خائناً.

التدبير الخياني الذي خطط له مستشارو الملك ضد المارشال

وفي هذه الآونة وجد أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه، مع بعض الآخرين من مستشاري الملك الأشرار، وجدوا أنفسهم قد هزموا في كل مكان من قبل المارشال، ونظروا بأسى إلى بلداتهم وقد أحرقت فاخترعوا أخيراً خطة لقهره، بوساطة عمل خياني، بحكم أنهم كانوا عاجزين عن فعل ذلك في قتال مكشوف، ولذلك عندما أعيقوا برغباتهم، ورأوا الأعداد التي لا تحصى من القتلى البواتيين الذين لاقوا

مصرعهم في ويلز، كتبوا رسائل تحتوي على خطط للخيانة لم يسمع
بمثلها، وأرغموا الملك، وهو جاهل بمقاصدهم، بأن يضع ختمه عليها،
وإلى جانبه وضع أحد عشر منهم أختامهم وثبتوها، ثم إنهم أرسلوا هذه
الرسالة الدموية الرسمية إلى إيرلاندا، فلقد بعثت هذه الرسالة الخيانية
إلى النبلاء الأيرلنديين، وإلى موريس فتر — جيرالد، الذي تولى ممارسة
أعمال مسؤول العدالة الملكية في تلك المملكة، وإلى وولتر وهيو ج دي
لاسي، وإلى رتشارد دي بورغ، وإلى غيوفري دي ماريسكو Marisco
وإلى آخرين، الذين كانوا آنذاك حلفاء بموجب القسم إلى المارشال
المذكور، وكانوا مخلصين له، وكان مقصد هذه الرسائل كما يلي:

لقد ذكر مستشارو الملك في المقام الأول، وأخبروا النبلاء المذكورين،
بأن رتشارد، الذي كان من قبل مارشال الملك الانكليزي، قد نفي من
انكلترا، بموجب قرار صدر عن محكمة بلاط الملك المذكور، وذلك
بسبب خيانة مكشوفة، وأن جميع ممتلكاته، يعني قراه وبيته قد أحرقت،
وأن حدائقه وأشجاره المثمرة قد قطعت، وبركه وأسماكه قد أتلقت،
وما هو أكثر من هذا كله هو أنه قد حرم بشكل أبدي من ميراثه الأبوي،
وعلى الرغم من حرمانه من ممتلكاته على هذه الصورة، هو ما يزال
يغضب الملك، وما برح يمارس اعتداءاته ضده:

«وبناء عليه نحن نأمركم، بحكم يمينكم كرعايا مخلصين لمولانا
الملك، أن تعتقلوه إذا صدف وجاء إلى إيرلاندا، وأن تحضروه إلى أمام
الملك حياً كان أم ميتاً، وإذا فعلتم هذا، فإن جميع ميراثه وممتلكاته في
مملكة إيرلاندا، التي هي الآن تحت تصرف الملك، سوف توزع فيما
بينكم، وسوف تتملكونها بموجب حق الوراثة، ومن أجل وفاء مخلص
بهذا الوعد المقطوع إليكم من مولانا الملك، نحن جميعاً، الذين بنصيحتنا
تدار أمور الملك والمملكة، سوف نكون ضامنين، لتنفيذ الخطة المذكورة
أعلاه، وداعاً».